بيت من خمس غرف

(مجموعة قصصية)

حسام الخطيب

كاريزما للنشر والتوزيع

بيت من خمس غرف

لم تعهد المدينة وجود غرباء، ولهذا تساءل السكان فيما بينهم عن هويّة مالك ذلك المنزل الرائع الذي تمّ بناؤه حديثاً عند الربوة الخضراء على أطراف مدينتهم، سمعوا أنه ثريّ مهاجر من أبناء المدينة، البعض خمّن أنه زعيم من زعماء العصابات جاء؛ ليسكن هنا بعد خروجه من السجن، هناك مَن أقسموا على أنه أمير أفغاني سابق، ولكن لم يصب أيّ منهم الحقيقة.

وحده (مالك) وأصدقاؤه تملّكهم الفضول لاستكشاف المنزل الجديد حديث البناء، قادوا دراجتهم الصغيرة، وسلكوا طريقاً يصل إلى الربوة وهم يتفحّصون المنزل في إعجابٍ.

كان أبيض اللون بنوافذ واسعة ملوّنة، سقف المنزل كان عبارة عن أبراد تشبه قلاع الأساطير، عليها آجر أحمر اللون، تحيط بالمنزل حديقة مصمّمة بروعة تسرّ الناظرين وقد أحاط بها سور حديدي منيعٌ.

قال (مالك) لصديقه (معزّ):

— ترى مَن ذلك الرجل؟، هل تعرف عنه أيّ شيء؟

أجابه (ياسين) وهو يشير بكفّيه علامة عدم المعرفة.

— لا، ولكن سمعت أبي يقول: إنّه قاتل مأجور خرج من السجن منذ أيامٍ.

نظر له (مالك) في غير تصديقٍ قائلاً:

— أنتَ تمزح، أليس كذلك؟

استمرت تساؤلات المدينة حتى أجابها وصول الساكن الجديد، أتى في صحبة عربات لحمل الأثاث وعشرات العمال، في يوم واحد انتهوا من نقل كل شيء وترتيبه، وفرشوا المكان، وانصرفوا كأنهم لم يكونوا هنا.

لم يكن مالك المنزل ودوداً على الإطلاق، هناك كلبان شرسان من فصيلة البولدوج أطلقهما في حديقة المنزل كدَّرا الجوّ بنباحهما الغاضب، كان مالك المنزل يرتدي عوينات سوداء مضادة للشمس على الدوام، وقور ولكن تعلوه مسحة من الكآبة والتجهّم، طويل بشكل بالغ، تجاوز الخمسين على أدنى تقدير، وقد حفرت أيدي الزمن تجاعيد وجهه في عناية، هذه تجاعيد قد رأت الكثير، تنازع التصحر والشيب على ملكية أجزاء من شعره كانت الغلبة فيها للتصحر.

لم يحاول الاختلاط بالجيران ولا تقديم نفسه للآخرين، كان يكتفي بالخروج كل صباح للسير بمحاذاة البحر مع كلابه التي كادت تفتك بطفل صغير شرد عن والدته، تصايح الناس ولاموا الرجل غاضبين، جاوبهم بكلمة مقتضبة « آسف «، ثم مضى وصار بعدها يخرج بها على جانب الربوة للسير بجوار المنزل.

زاد غموضه من تكهنّات الناس حول شخصيته وحاكوا حوله الأساطير، ولكن سرعان ما انصرف سكان المدينة لحكايات جديدة أكثر إثارة إلا (مالك) ذا الأعوام العشرة ظل على فضوله القديم، فقال لأصدقائه:

— لا بدّ أن نعرف مَن هو هذا الرجل؟، وما الذي يحدث في منزله؟

كانت عصابته الصغيرة من الأطفال بها ثلاثة فقط (معز)، وهو أكبر من (مالك)، ولكن ينصاع له كفل صغير يتبع أمه، وهناك (فادي) الذي يخالف (مالكاً) دائماً في كل رأي، ولكنه يخشي أن يفوت المغامرة، وأخيرا(باسم) ذو

الأعوام السبعة، وهو يخوض مع الخائضين، إن ذهبوا ذهب، وإن بقوا بقي.

قال له (فادي):

— وما الذي يعنينا ما بداخل المنزل؟، ألا ترى الكلاب ستنهشنا نهشاً؟

عقب (باسم) قائلاً:

— أنا لا أخاف الكلاب، ولكن أبي سيقتلني لو حدث شيء ما خطأ، ربّما يشكو منا الرجل أو يضبطنا ونحن نتسلل إلى منزله.

قال (مالك) لهما مطمئناً:

— اطمئنا، سندخل للمنزل حينما يخرج هو لتنزهه بكلابه، لقد رأيته يغيب كلّ مرة لأكثر من نصف ساعة، ونحن نحتاج إلى خمس دقائق فقط.

قال (معز) وقد اهتم بالأمر:

— حسناً، ولكن خمس دقائق فقط لا أكثر.

ترقب الصغار من بعيد حتى انصرف الرجل لجولته الصباحية المعتادة، وأخذوا يتسلقون السور الحديدي في سرعة إلى داخل المنزل، كان بالحديقة تماثيل صغيرة متناثرة لحيوانات وأطفال، وكذلك كان بها بركة صناعية صغيرة عليها زهور طافية، حاولوا الدخول من الباب الأمامي فوجدوه موصداً، ولكن الباب الخلفي للمنزل كان مفتوحاً لحسن الحظ، دلفوا للمزل في سرعة، والخوف يعصف بهم أن يعود الرجل فجأة ويباغتهم.

كان المنزل من طابقين، بالطابق الأعلى هناك غرفة مكتب فخمة، ومكتبة عظيمة تحوي ثروة تزيد عن ألفيّ كتاب على الأقل، العجيب أنها من مختلف صنوف الكتب من أدب الأطفال إلى الموسوعات العالمية، هناك نموذج لكرة أرضية مع نماذج لآثار العالم المختلفة في ركن المكتب، لابد أن الرجل كثير الأسفار.

هناك مطبخ كبير بالطابق الأول، وحجرة صغيرة مغلقة، هناك غرفة طعام بها خمسة مقاعد فقط حول مائدة، بهو جميل، وغرفة معيشة واسعة، لم يكن هناك أيّ شيء يريب، فعلق (فادي):

— لقد رأينا ما يكفي، الرجل ليس لديه ما يخفيه.

هتف به (مالك):

— انتظر، لم نرَ الطابق العلوي بعد.

قال له (معز) معترضاً:

— لا، لقد ضيّعنا وقتاً بما يكفي، والرجل على وشك الوصول.

عاند (مالك) قائلاً:

— حسناً، ابقيا أنتما هنا، وأنا سأصعد لدقيقة.

لم تعاودهما الشجاعة للصعود معه، فلزما أماكنهما، وصعد هو وحده، كان بالطابق الأعلى أربع غرف، ثلاثة منها مغلقة ممّا فجر بداخله بركاناً من الفضول، أمّا الغرفة الأخيرة المفتوحة، فكانت غرفة نوم لطفل مزدانة بألعاب عديدة، كانت الغرفة جنة بالنسبة له، وودّ لو مكث بها فترة أطول، ولكن صوت نباح الكلاب الذي صكّ مسامعه في قوة نبّهه إلى عودة الرجل.

هرع مسرعاً؛ لينزل الدرج، لم يجد زميليه بأسفٍ، فقدر أنهما سبقاه بالفرار، أسرع يخرج من الباب الخلفي ويعدو نحو السور، يرى زميليه يفران بالدراجات من أعلى الربوة والرجل يدخل بكلابه الشرسة من الباب الأمامي، بقفزة واحدة اعتلى السور قبل أن يختل توازنه؛ ليسقط على الجانب الآخر ويصرخ متوجعاً، أحسن أنه قد كُسرتْ ساقه، حاول الوقوف فلم يستطع، وسقط مرة أخرى، انتبه الرجل له فترك كلابه وسار بعَدْوٍ نحوه غاضباً، حاول الهرب، ولكن الرجل

أمسك به، كانت ساقه تنزف، انتبه لها الرجل فحمله وسار به داخل المنزل، والرعب يعصف بنفس (مالك)، ترى ماذا سيفعل به؟، هل سيقتله؟، هل سيتركه للكلاب؛ لتفتك به؟

حاول التملُّص، ولكن الرجل كبّل يديه بحركة محكمة وهو يهتف به:

— اصمتْ، ولا تتحرك.

قام بادخاله للمنزل وأجلسه على أريكة في غرفة المعيشة قبل أن يدخل المكتب ويخرج حاملاً سكيناً وصندوقاً صغيراً، اقشعر جلد (مالك) وهو يشعر بالشلل في مكانه، ولكن الرجل أسرع إليه وثبّته في مكانه وهو يشق بنطاله الذي تمزق من أثر السقوط؛ ليخلصه من هذا الجزء الملوّث بالدم قبل أن يفتح الصندوق ويخرج بعض أدوات الإسعافات الأولية.

هنا استكان (مالك) في مكانه، وهو يترك الرجل يتعامل بمهارة مع ساقه الجريحة، في غضون دقائق كان قد انتهى ممّا يفعله، وتوقف النزيف تماماً، قال له الرجل:

— قم الآن، حاول المشي عليها.

قام (مالك) من مكانه، وتحرك بضع خطواتٍ، شعر بالألم الشديد، فأشار له الرجل بالجلوس قائلاً:

— لا بأس، استرح قليلاً، هي ليستْ مكسورة، بعض السجحات والكدمات فقط، بعد قليل ستتمكن من السير عليها.

حار (مالك) ماذا يفعل الآن؟، تركه الرجل وانصرف إلى غرفة مكتبه، وظل هناك لأكثر من عشر دقائق، تساءل (مالك): هل يمضي أم يظل؟، انتبه لنقطة ما فعاد يطل على الرجل برأسه في غرفة المكتب، كان الرجل يقرأ رواية من مغامرات خاصة بالناشئين، تطلع له الرجل قائلاً:

— يمكنك الانصراف الآن.

— شكراً، ولكن الكلاب بالخارج، هل ستتركني أمرّ؟

مطّ الرجل شفتيه قائلاً:

— ربّما نعم، وربما لا، أنت وحظكَ.

بهت (مالك) وتجمّد في مكانه، فأغلق الرجل كتابه قائلاً:

— تعرف أنّ ما فعلته خطأ، أليس كذلك؟، التسلل إلى بيوت الناس واقتحامها غير أخلاقي وضد القانون.

احمرت وجنتا (مالك) خجلاً، وهو يقول بخفوتٍ:

— آسف.

استكان الرجل وهو يقول:

— اعتذارك مقبول، لا تكررْها، دع الناس وشأنهم، ربّما تتسلل يوماً ما إلى بيت قاتل مثلاً، أو... أو....

قاطعه (مالك) قائلاً:

— الناس يظنون أنك قاتلٌ سابقاً.

ضاقت عينا الرجل وهو يقول:

— ليظنّوا ما يظنون، مالي والناس؟!

سأله (مالك) في لهفة:

— هل أنت كاتبٌ؟

— لا، لماذا؟

— كل هذه المكتبة الضخمة، لديك كتب كثيرة للأطفال، هل لديك أطفال؟

— إنك تسأل أسئلة كثيرة.

— آسف مرة أخرى، سأغادر الآن.

— انتظر، سأصطحبك للخارج.

سار مع الرجل وهو يعرج بشكل خفيف حتى أوصله إلى باب المنزل، تحفّزت الكلاب قليلاً حينما رأتهما سويّاً، ولكن الرجل أشار لها بإشارة من يده أن تهدأ.

قبل أن يغادر (مالك) سأله الرجل:

— ماذا ستقول لذويك لو سألوك: كيف أصيبَتْ ساقك؟!

حار (مالك) جواباً، فأسعفه الرجل قائلاً:

— أخبرْهم أنّكَ كنت تسير قرب المنزل، وانطلقت الكلاب عليك، فانكفأت على وجهكَ من سرعة العدَوْ وأُصبْتَ.

هزّ (مالك) رأسه مبتسماً وهو يقول:

— سيلعنونك كالعادة.

ابتسم الرجل رغماً عنه وهو يقول:

— لن تضيرني بضع لعنات أضافية.

في اليوم التالي حضر (مالك) إلى منزل الرجل أثناء تجواله الصباحي، اندهش الرجل لدى رؤيته مرة أخرى، نبحت الكلاب على (مالك)، ولكن بحدّة أقل هذه المرة، ولكن الرجل أوقفها وهو يقول له:

— لماذا عدْتَ؟

— بالأمس سقط مني شيء ما قيّم، وأظن أنه ربّما سقط داخل منزلك.

— ما هو هذا الشيء القيّم؟

— ميدالية مفايتح تخصّني.

هزّ الرجل رأسه وهو يقول:

— حسناً، لندخل المنزل، ابحث عنها بسرعة، ثم خذها وانصرف.

دخل (مالك) مع الرجل إلى داخل المنزل، أخذ يبحث في الطابق الأسفل قبل أن يقول:

— ليست هنا، ربما هي بالطابق الأعلى.

ابتسم الرجل وهو يقول:

— هل صعدتَ بالأمس للطابق الأعلى؟

صمت (مالك) وهي يحاول ألا ينظر للرجل فعاجله ذلك الأخير قائلاً:

— ماذا شاهدتَ بالضبط؟

— فقط غرفة نوم الأطفال، هل لديك أبناء؟

قال الرجل له:

— ليس هذا من شأنك، أنت كثير الأسئلة، ولا تعرف متى تتراجع؟

صمت (رائف) قليلاً وهو يقول:

— حسناً، ربما هي في غرفة المكتب.

ذهبا معاً؛ ليبحثا في غرفة المكتب، قبل أن ينظر (مالك) إلى ركن الهدايا التذكارية قائلاً:

— الكثير من التذكارات، لابد أنك زرتَ بلاداً كثيرة.

تنهد الرجل وهو ينظر إلى (مالك) بريبةٍ:

— فهمت الآن، أظن أنكَ لم تفقد شيئاً هنا، ولكن كانت هذه حجتكَ للعودة إلى هنا مرة أخرى، قل لي: ماذا تريد بالضبط؟

— يقتلني الفضول؛ لأعرف مَن أنت؟، كل شيء بشأنك غامضٌ، اسمك، هويتك، بيتك ظريف ولكن غريب، غرفة أطفال ولا أرى أطفالاً، كتب مراهقين ولا أرى مراهقين.

صمت الرجل لدقيقة قبل أن يقول:

— هل تعلم أنك تذكرني بولدٍ كنت أعرفه قبل أربعين عاماً؟

فغر (مالك) فاه وهو يقول:

— حقاً، مَن هو؟

أجابه الرجل في حزن ظاهر:

— أنا، قل لي: أليس لديك مدرسة؟

— نحن في إجازة نصف العام.

— آه، فهمتُ، كم يوماً بقي لديك لتزعجني؟

— عشرة أيام.

— آه، قلبي المريض لا يحتمل.

— هل أنت مريض؟

— ربما، حسناً، قل لي: ماذا تريد أن تعرف؟

تهللت أسارير(مالك) وهو يقول:

— كلّ شيء، أريد أن أعرف مَن أنت؟، لنبدأ باسمك مثلاً.

— اسمي (عاكف).

— تشرفنا يا أستاذ (عاكف)، ماذا تعمل؟

— الآن لا أعمل في أي شيء، وبالماضي عملت في كل شيء.

— هل أنت متزوج؟

— لا، وليس لدي أطفال كذلك.

— اذا عن غرفة الأطفال بالأعلى؟

صمت (عاكف) قبل أن يقول:

— تعالَ معي.

تبعه (مالك) إلى الطابق الأعلى، التقط الرجل سلسلة مفاتيحه من جيبه، وفتح الغرفة الأولى التي رآها (مالك) من قبل، كانت غرفة الأطفال كما هي، لم يهتم (مالك) كثيراً لرؤيتها، تحرك (عاكف) للغرفة الثانية وفتحها، كانت غرفة تبدو أنها جهزتْ لشابّ مراهقٍ فيما بين السنة الثالثة عشرة والثامنة عشرة من عمره، هناك ملصقات لنجوم مشاهير على الحائط، هناك مكتبة موسيقية واضحة، كتب كثيرة عن أدب المغامرات والخيال العالمي للناشئين، كمبيوتر حديث مع مجسم للمجموعة الشمسية، هناك لوح رقعة شطرنج وبه بعض الحركات القائمة بالفعل، شبكة كرة سلة على الحائط، مسح (مالك) الغرفة بعينيه في سرعة، وكأنما يحفظ معالمها قبل أن يتوجها إلى الغرفة الثالثة، كان بها سرير كبير، وجدرانها باللون الوردي الطريف، بها ستائر زرقاء بلون البحر مع أغطية فراش بيضاء، هناك زهور على الفراش، تبدو الغرفة وكأنها جهزت لزوجين

حديثي الزواج، تحركا للغرفة الرابعة، كان نفس الفراش ولكن الأواني أصبحت تقليدية قاتمة نوعاً ما، هناك كرسي هزازٌ بها، ونموذج لمدفأة حجرية، هنا توقف (مالك) وهو يتذكر شيئاً ما فقال:

— هناك غرفة مغلقة بالأسفل أيضاً، ماذا عنها؟

— هذه لا شأن لك بها، لقد رأيت ما يكفي بالفعل.

هبطا إلى الأسفل مرة أخرى، و(مالك) يسأل:

— لم أفهم، لمن هذه الغرف الثلاث وليس لديك أبناء؟!

نظر له (عاكف) واجماً قبل أن يقول:

— هل تريد قدحاً من الشاي الأخضر؟

اعتذر (مالك) قائلاً:

— لا، شكراً، ربما لو لديك بعض الماء.

ابتسم (عاكف) وهو يقول:

— سأحضر لك عصير برتقال أفضل، ثم أحكي لك.

ذهبا معاً إلى المطبخ حيث أعد (عاكف) لنفسه قدحاً من الشاي، وأحضر لـ (مالك) عصيراً طازجاً من البراد وهو يقول له:

— كم عمرك؟

— عشر سنوات، وسأصبح إحدى عشرة في مايو المقبل.

— جيد جداً، حاول أن تستمتع بأيامك جيداً وإلى أقصي حد، عش اليوم كما ينبغي، لا تؤجل شيئاً، واستمتع بصحبة أسرتك وأصدقائك قدر ما تستطيع.

— حسناً، سأفعل، ولكن ما قصة الغرف الثلاث؟

— ما أقوله لك هو قصة الغرف الثلاث.

— لم أفهم شيئاً.

ناوله (عاكف) كوب العصير وهو ينظر في شرود إلى النافذة قائلاً:

— حينما كنت في مثل عمرك كانت تحدوني أحلام أكبر من سني، المال والشهرة والسطوة، أن أجوب العالم وأن يصبح لدي الكثير من الأصدقاء، ولأجل ذلك قررت أن أعمل كثيراً، ولا أضيع وقتي في أي شيء آخر غير العلم والعمل، في الوقت الذي ذهب فيه بقية أصدقائي للعب الكرة ذهبت أنا إلى المكتبة، وفي الوقت الذي تعلم فيه أصدقائي مغازلة النساء وكتبوا أول سطور قصص الحب كنت أنا أتعلم اللغات الأجنبية، في الوقت الذي انهمكوا فيه في توطيد صداقات العمر أخذت أنا أسافر عبر القارات، كنت أنظر لهم على أنهم فشلة وأنني الناجح الوحيد في الحياة، الوحيد الذي فهم أسرار الدنيا، الوحيد الذي لديه خطة، كلما شعرت بالتعب أو الملل قلت لنفسي: اصبر شهراً آخر، اصبر سنة أخرى، ثم استمتع كما شئت، لا يحزنك أنك بلا أصدقاء، يوماً ما حينما تحقق كل أحلامك سيكون لك أصدقاء، لا يغرنك أن صحتك تتأثر بشدة، حينما يصير لديك المال هو مَن سيعيد لك شبابك، ماذا عن أمي التي أهملتها؟، يوما ما سأعود لأغدق عليها الهدايا وأجعلها سعيدة، ولكن ذلك اليوم لم يأتِ قط، مرت سنون وعقود كان يأتي علي وقت الدراسة وأنا أدرس فأقنع نفسي أن الدراسة أهم، يأتي وقت الدراسة وأنا أعمل، فأقنع نفسي أن العمل أهم، فتركت الصلاة من أجل الدراسة، ثم تركت الدراسة من أجل العمل، وحينما تزوج أخي ومرضت أمي لم أذهب إليهما، وأقنعت نفسي أن العمل أهم، ومرت الأيام وأنا أكبر، وكلما حققت حلماً نظرت إلى حلم أكبر، وكلما وصلت إلى حدٍّ وضعت لنفسي حداً جديداً حتى جاء

اليوم الذي أبلغوني فيه بوفاة والدتي، ثم بعدها أصابتني وعكة صحية عارمة كادت تودي بحياتي، هنا انتبهت إلي حقيقة مهمة، هل تعرف ما هي؟

هز (مالك) رأسه نفياً، فأكمل الرجل وهو يقول:

— أنني لم أعش الحياة، بل عاشتني، كنت أحرق المراحل، كنت مثل الشجرة التي تحرق بعض خشبها لتضيئ الظلام دون أن تدرك أنه مع آخر قطعة خشب منها ستنتهي دون أن تحصل على الضياء الكامل.

توقف الرجل عن الكلام قبل أن يقول:

— لقد أنهيتَ شرابك، هيا يمكنك الانصراف.

قام (مالك) لينصرف وقد شعر أنه أثقل على الرجل حينما جعله يستعيد ذكريات الماضي قبل أن يستوقفه الرجل قائلا:

— هل ستعود غداً؟

قال (مالك) في حيرة:

— هل تريدني أن أعود؟

— نعم، يمكنك العودة متى شئت.

عاد (مالك) في اليوم التالي وفي الذي يليه، أصبح (عاكف) يستقبله بصدر رحب ويتبسط له في الحديث؛ ليدور بينهما بالسعادة، أصبح بالنسبة لـ (مالك) مثل نافذة المعرفة على الحياة، حدثه عن رحلاته البرية في (تنزانيا)، وحدثه عن معسكرات السفاري في (المغرب)، حدثه عن مصارعة الثيران في (أسبانيا)، وعن رياضة الكابوريا في (البرازيل)، علمه الفرق بين كلمتي اللطيم واليتيم، حدثه عن جماليات الخط العربي، حتي إن (مالكاً) شعر بأن الرجل عاش ألف حياة، سأله (مالك) في حذر:

— تبدو فعلاً أنك عشت ألف حياة.

— نعَم، عشتها، ولكن حياة واحدة لم أعشها، هي حياتي أنا.

— لم أفهم من حديثك أول مرة ما العلاقة بين قصتك والغرف الأربع التي رأيتها؟

ابتسم (عاكف) وهو يقول:

— حاولت بعد أن اكتفيت من أحلامي وجمعت الكثير من المال أن أعيش ما فقدته، لم أستطع، كل الطعام الفاخر في الفنادق والمطاعم لا يوازي الطعام الذي كانت تعده لي أمي، كل الجميلات اللاتي خرجت معهن مؤخراً لا يعادلن ابتسامة زميلتي ذات الضفيرتين في المدرسة، كل الأصدقاء المشاهير الذين صادقتهم لا يغنوني عن صديق الدراسة الذي كان يضحكني حتى أقع على ظهري، حاولت أن أقوم بعمل أربع غرف نوم كنت أحلم بها لطفولتي ومراهقتي وزواجي وكهولتي، ولكني لم أستطعم النوم بها، فقمت بالنوم في الغرفة الخامسة في الأسفل.

هنا تذكر (مالك) الغرفة الخامسة فقال:

— نعَم، تذكرتها، لم تدعني أراها.

— أعوذ بالله أن تراها، ولكن لو فقدت عمرك كما فقدتُ فستكون هي غرفتك الوحيدة التي ستأوي إليها.

— غداً آخر يوم في الإجازة، ولن أستطيع الحضور، هل تدعني أراها؟، أرجوكَ.

أودع (مالك) نظرته كل براءته وتوسله، فاستسلم (عاكف) وهو يقول:

— حسناً، ولكن سجلها في عقلك جيداً،رفهي المرة الأولى والأخيرة التي سأسمح لك برؤيتها.

سار (مالك) معه في فرح ولهفة لرؤية الغرفة الخامسة التي ينام فيها (عاكف) ويترك من أجلها الغرف الأربع الرائعات في الطابق الأعلى، لاريب أنها غرفة رائعة.

تحفز مع صوت المفتاح وهو يدور في ثقب الباب، أحس أنها غرفة كنز وما شابه، ترى ماذا بالداخل؟، ما لونها؟، ما فرشها وأثاثها؟، انفتح الباب بهدوء ورفق و(مالك) يتطلع إلى الداخل قبل أن يتراجع مذهولاً.

كانت الغرفة خالية ليس بها شيء وضيقة إلى أبعد حد، هي ليست غرفة، هي متران طولاً ومتر عرضاً، تبدو مثل مخزن المؤن وليس بها أي إضاءة فقال (مالك) في دهشة:

— ما هذا؟، هذه ليست غرفة.

— هي غرفة، ولكنها الغرفة الأخيرة لمن سُرقت منه حياته وضاعت سدى، تشبه القبر أليس كذلك؟، وهل بعد الحياة الجميلة من مكان سوى القبر نذهب إليه؟، هل تعلم أنني أنام بعمق هنا؟، هنا مستقري؟، لم أعد أحس بالانتماء إلي الغرف التي بالأعلى فصممت هذه الغرفة بالأسفل، أحياناً وأنا أنام بها أستدعي بعين الخيال أمي الراحلة؛ لتمسح بيدها على شعري.

لاحظ (مالك) أن (عاكف) قد تلألأت عيناه بالدموع وهو يجاهد ليكبحها فقال معتذراً:

— آسفٌ أنني طلبت رؤيتها.

مسح (عاكف) دموعه وهو يقول:

— لا عليك، ولكن عدني ألا تفرط بحياتك وتتركها تضيع من بين يديك، عش في كل غرفة واستمتع بكل ما فيها.

— حسناً، أعدكَ.

في اليوم التالي انشغل (مالك) بالاستعداد للعودة للمدرسة، كان يودّ أن يعود لزيارة الأستاذ(عاكف)، ولكنه لم يستطع فوعد نفسه أن يمر عليه يوم الجمعة وهو يوم العطلة من المدرسة.

مرت الأيام الستة طويلة جداً حتى جاءت الجمعة، ذهب (مالك) إلى المنزل كالمعتاد، لدهشته وجد البوابة الحديدة مغلقة والكلاب ليست بالداخل كذلك، اندهش كثيراً وحدث نفسه لربما ذهب (عاكف) في إجازة وسيعود.

ولكن مرت جمعتان أخريان ولم يعد حتى إن النباتات بالحديقة كانت على وشك الذبول، لولا نظام ري متطور له مؤقت ينطلق بين الحين والآخر.

استسلم (مالك) وقرر عدم الذهاب مرة أخرى، ومرت شهور عديدة قبل أن يتفاجأ وهو يحتفل بالبيت بعيد ميلاده في شهر مايو بضيف يطرق عليهم الباب مع غروب الشمس.

فتح الباب وهو يستطلع ذلك الضيف، كان رجلا شاباً في الثلاثين من عمره يرتدي بذلة سوداء أنيقة، قام بتحية (مالك) وهو يسأل عن والديه، خرجا منزعجَين من أن يكون أحد أبنائهما قد فعل شيئاً ما، طمأنهم الرجل وهو يقول: إنه قد أتى في أمر يخص (مالك)، وإنه محامي السيد (عاكف) مالك فيلا الربوة.

نظرا إلي (مالك) في تساؤل، كان مثلهما لا يعلم أي شيء عما يحدث، فابتسم المحامي وهو يخرج من حقيبته خطاباً ويفضه ويشرع في قراءته بصوت واضح عميق قائلاً:

— عزيزي (مالك) الصديق الطيب حالياً المزعج سابقاً، أودّ أن أشكرك على الأيام العشرة التي تطفلت فيها على حياتي، صدقني لقد أحييتَ قلباً كان

قد مات من شدة الصدإ الذي علاه، ولقد كنت قد ذكرتُ لك أنك تشبه شخصاً أعرفه منذ أربعين سنة ألا وهو أنا، ولذا أودّك أن تحصل على ما لم أحصل عليه أنا في حياتي ولكن على شرط أن تعيشها كما وعدتني بكلّ حلوها وجمالها وتبعد حرق أيامك ولياليك بها.

اعتباراً من اليوم الفيلا الخاصة بي هدية مني لك، لك حق تملكها، وسيهبكَ المحامي المفتاح الخاص بالفيلا مع مفتاح الغرف الأربع، أرجو أن تستخدم كل غرفة في وقتها المناسب بلا تعجيلٍ أو تأجيل، فقط مفتاح واحد لن يعطيه لك المحامي هو مفتاح الغرفة الخامسة وأنت تعلم لماذا؟

أرجو أن تعش أياماً وليالي أفضل من التي عشتها وأنا واثق من أن عقلكَ لن يكون مثل عقلي.

نظر الوالدان إلي ابنهما في فرح وسعادة، هو فقط الذي تطلع إلى المحامي في تساؤل وكأنما يستنقطه: أين ذهب السيد (عاكف)؟، وبدا أن المحامي قد فهم ما لم ينطق به الصبي فقال له:

— السيد (عاكف) يقطن الآن في الغرفة الخامسة يا صغيري.

تمت

الشارع لم يعد لنا

المشهد الأول

الشارع كان لنا)

مازلت أذكر ذلك اليوم في أكتوبر في أوائل التسعينات، كان حينها حيٌّ هادئ نظيف، يسكنه الكثير من الجيران اللطفاء، كان بالشارع متسعاً للعب لنا بدراجاتنا، نتسابق أنا وأقراني، كلنا كنّا في نفس السن، كان معي (حمدي) ابن الأستاذ (طلعت) مدرس اللغة الفرنسية، وكذلك (هناء) ابنة السيدة (كوثر) جارتنا، وأخيراً أنا (عصام)، ووالدي يعمل مهندساً بالمساحة، كانت بيوت الحي جميلة وليست متلاصقة، لم تكن تزيد عن ثلاثة طوابق في كل حالٍ، تطوع البعض وقاموا بزراعة شجيرات وردٍ أمام بيوتهم، فكسرَتْ من حدة لون البيوت، هناك مَن قرّر دهان بيته باللون الأبيض إمعاناً في إضفاء لمحةٍ من الجمال في مزج الأخضر والأبيض.

لم يكن محرّماً علينا كأطفال الذهاب والدخول حتى دون إستئذانٍ إلي أيٍّ من بيوت الجيران، فقد كنا نعتبر كل أبٍ في المكان هو عمّ لنا، وكل أمٍّ هي خالة لنا.

في الأعياد كنا نستبق للطرق علي بيوت الجيران ونحن نصرخ بفرح طفولي (كل سنة أنتم طيبون)، كانت السيدة (كوثر) تهرع للداخل؛ لتحضر لنا شيكولاتة لذيذة هدية العيد، كان الأستاذ (طلعت) يكتفي بإعطائنا نقوداً جديدة من فئاتٍ صغيرة، ولكن من شدة نظافتها ولمعانها كنا نزهد في صرفها ونحتفظ بها كهدايا.

ولكن مثل أيّ شجرة وارفة يجب أن يأتي يومٌ ويقف غراب شؤم عليها، فبينما نحن نلعب بالدراجات إذ شاهدنا ذلك الرجل يظهر في نهاية الشارع، كان رجلاً ريفياً خالصاً يرتدي جلباباً أزرق مميزاً، وبه قطع في أسفله، شاربه كثٌّ وكأنه يلتهم فمه، سار بيننا وهو يتفرس في وجوه الناس في حدة وعيناه تكشفان عورات البيوت، لاحظه أهل الشارع على الفور، فلم يكن وجود غريب بيننا شيئاً عادياً.

قالوا لعله عابر سبيل أو ضلّ طريقه، تقدم الرجل من عمّ (مرسي) صاحب البقالة على أول الشارع وهو يقول له:

— السلام عليكم يا حاج.

— وعليكم السلام يا بلدينا، تأمر.

— هل هناك أحد هنا يؤجّر غرفة للسكن؟، أنا أبحث عن سكنٍ.

— لا أظن يا بلدينا، البيوت كلها هنا تسكنها عائلات، حتى الشقق المؤجرة تسكنها عائلات، والعزّاب يمتنعون.

— أنا لدي زوجة، تركتها بقريتي، ولدي أولاد كذلك، جئت للبحث عن عملٍ، وأريد أن أجد سكناً لحين ذلك.

نظر له عم (عباس) في إشفاق قبل أن يقول:

— حسناً، سأكلّم لك صاحب البيت الذي نحن فيه، هناك غرفة للغسيل فوق البيت ربما يعطيها لك.

— شكراً يا حاج.

اعترض الأستاذ (نصرت) صاحب البيت على ذلك كثيراً، ولكن الرجل الريفي أظهر له لمحات انكسارٍ خفّفت من اعتراضه قبل أن يقول في استسلام.

— حسناً، الأجرة ستكون عشرة جنيهات بالشهر، والدفع يجب أن يكون بانتظام.

— شكراً يا بك، معروفك هذا على رأسي من فوق.

كنت أتابع الحديث بغير اهتمام، وعدت؛ لألعب مع أقراني في غير اكتراثٍ، فالحياة جميلة، وهذه أحاديث كبار لا شأن لي بها.

مرت أيام والرجل ينقل أشياءه إلى الغرفة التي استأجرها، كان يبدو فقيراً جداً، فقد أحضر سريراً خشبياً متهالكاً فقط، وحشية فراش عفا عليها الزمن، وكذلك بضعة أوعية للغسيل والطهي.

تنبهت والدتي لذلك فقامت بإحضار ثلاثة مقاعد قديمة لا نحتاجها بالمنزل، وقالت لي أن اذهب إليه وأعطه إيّاها، شكرني الرجل كثيراً، وهو يبتسم ابتسامة كشفت عن أسنان صفراء نخرها السوس.

لم تفعل أمي وحدها ذلك، كل الجيران تسابقوا إلى أعطائه أشياء ما بين موقد صغير يعمل بالوقود، وما بين بطاطين قديمة وغيرها كثير.

سمعنا أنه وجد عملاً في محل أحذية قريب كعامل نظافة وأنه يخطط لإحضار زوجته وأولاده من البلد إلى هنا، كم من الجميل رؤية أطفال جدد في الشارع!، هذا سيكون مسلياً.

لم أكن أعرف وقتها أنه ليس كل الأطفال سواء، أو بالأحرى ليس كل الأطفال أطفالاً، رأيناه ذات يوم يحضر ومعه زوجته، شابة بدينة متشحة بالسواد، كان يبدو قاسياً جداً معها حيث كان يلزمها في الطريق في غير حرج، وقد جر وراءه طفلين، الأول طفل في العاشرة كان اسمه (جودة)، والثانية طفلة في السابعة اسمها (زينب).

ما إن انتصف النهار حتى وجدنا (جودة) و(زينب) في الشارع يراقبان

الجميع، كنا نروح ونغدو بالدراجات قبل أن نترجّل منها ونلعب لعبة الاختفاء، رأينا أعينهما الواسعة تحدق بنا، نعرف في قرارة أنفسنا أنهما يريدان اللعب معنا، ولكن نتحيّر، مَن عليه أن يبدأ بالخطوة الأولى؟

تشجعت (هناء) واقتربت من (زينب) قائلة في براءة:

— هل تودين اللعب معنا؟

هزت (زينب) رأسها في خجل وهي تقول:

— نعم، ولكن أمي ستضربني لو فعلت.

— لا عليكِ، سأجعل أمي تتكلم مع أمك حتى تدعك تلعبين معنا.

كان عليّ أن أتقدم إلى (جودة) كذلك؛ لأساله الانضمام لنا، ولكنه فأجاني بقوله:

— اللعب للصغار فقط، هذا ما يقوله أبي.

— وماذا عنا؟، نحن صغار.

— أنت صغير، أما أنا فرجل كبير، وكبرت على اللعب.

تركناه وانصرفنا مع (زينب)، وبدأت الحياة تأخذ شكلاً آخر.

المشهد الثاني

(ثم تقاسمنا الشارع)

منتصف التسعينات، كنا قد ذهبنا إلى المدرسة الإعدادية، صوت صياح يأتي من أعلى بناية الأستاذ (نصرت)، ويجاوبه صياح أعلى من زوجة الرجل الغريب الذي اشتهر بيننا باسم أبي (جودة).

— يا أيتها المرأة، الكلام ليس لكِ، ولكنه لزوجك، أنا لن ألوث حديثي بردك الوقح، لقد أجّرت لكم هذه الغرفة شفقة بكم، ولكنكم تستولون علي السطح كله فلا يستطيع أحد نشر غسيله، ولا تستطيع شقة النجاة من عيونكم المتلصصة عليهم كثيراً، ثم ما هذه القذارة؟، دجاج يملأ المكان وينزل إلى الدرج الأسفل، أين تحسبون أنفسكم؟، في الأرياف؟، هذه المدينة، تحضّروا.

رأيت من شرفة منزلي أبا (جودة) يحضر مسرعاً وهو يعدو في الشارع ومن خلفه يعدو (جودة)، وكلاهما قد أمسك بعصيّ خشبية، وكأنهما يستعدان لمعركة حامية الوطيس، لم تألف آذاننا في الشارع أي معارك من قبل أو مشاجرات، وحتى الكلام النابي لم يكن يزيد على شتائم بين الأطفال ما بين (أنت غبي) أو (أنتِ حمقاء).

ولكن هذا اليوم دخلت إلى قاموس كلماتنا مفردات كثيرة ثقبت براءتنا، أول مرة نسمع سبّة بالأم والأب وبالأعضاء التناسلية كذلك حتى إن والدتي خشيت عليّ، فأمرتني بالدخول للمنزل في سرعة، وإن راقبَتْ هي الموقف في حذر.

تحول الموقف من شجار بين صاحب البيت وبين الأسرة المتطفلة إلى معركة

حامية، وقد انهال عليه أبو (جودة) وابنه بالعصا في ضرب مبرح وطردوه خارج سطح بيته.

استدعى الرجل الشرطة التي أمسكت بالضاربين واقتادتهما لقسم الشرطة، وهناك تعالَت توسلاتهما له حتى يتنازل عن المحضر، ويقوموا بالتصالح.

تحت ضغط بعض رجالات الشارع تم الصلح وعاد الجميع إلى الحارة.

في اليوم التالي صدرت صرخة من (هناء) ابنة الثالثة عشرة وهي تخرج من بئر الدرج في أحد البيوت باكية، وخلفها يخرج (جودة) الذي صار على أعتاب المراهقة وهو يرتب ملابسه، اتضح الموقف لأهل الشارع في لحظات، لقد جذبها الفتى من ذراعها وهي تسير واقتادها تحت بئرالسلم وحاول تقبيلها عنوة.

انطلقت نحوه أحاول ضربه، كنت أقوى منه جسداً، ولكنه كان أكثر جرأة مني، فصرعني أرضاً، ثم بصق عليّ، صاح به عمّ (مرسي):

— حرام عليك يا بني.

— اصمت يا مخرف يا ابن (.....)

كانت هذه أول مرة نسمع سبة لشخص كبير بالسن من صبي مراهق، شعر عمّ (مرسي) بالحرج وهو يقول وقد بلله الخجل:

— سأشكوك لأبيك.

تبادل أبو(جودة) وابنه ضحكات كثيرة من ذلك الموقف في هذا اليوم، بعدها بأيام بدأنا نلاحظ وجوهاً غريبة في الحي، أناس يأتون مع أبي (جودة) للسهر معه فوق سطح منزله الذي استحال إلي ملكية خاصة له، شباب بملامح غير عاطفية يتسكعون مع (جودة) في الشارع يعاكسون كل من غدا أو راح.

لم تعد الشكوى للشرطة ممكنة، وكانت تأتي فقط للصلح فيما بيننا، خاف

الأستاذ (نشأت) على بناته الثلاث من هذا الجو المشبوه فقرر ترك شقته المؤجرة والانتقال إلى منطقة أخرى، ثم تبعه المهندس (رفعت) والدكتور (نظمي)، حتى السيدة (كوثر) تركتنا هي و (هناء) وهي تتحسر على مجد الشارع القديم.

كنت أظن أن (زينب) هي الفتاة الوادعة في البيت وستحزن لفراق صديقتها، ولكنها نظرت من فوق السطح في استخفاف وهي تلقي بإناء فخاري على الأرض متمنية عدم عودتهم، لقد تقاسموا الشارع معنا بلا رجعة.

المشهد الثالث

الشارع صار لهم

أوائل الألفية الجديدة.

لم يكد يمر على زواجي شهرين حتى اشتكت لي عروسي أن هذا الشارع لم يعد مناسباً لسكنانا وأنها تتعرض لتحرشات لفظية من شباب كلما عادت إلى المنزل وحدها، شعرت بالغضب، كيف لا أستطيع توفير الحماية لها؟، ولماذا لم تقل لي منذ البداية؟، لم أخض في حياتي شجاراً قط ولا أعترف بالعنف، ولكنها مسؤولة مني، ويجب عليّ إشعارها بالأمان.

هرعت للأسفل للتشاجر مع (جودة) وأصدقائه، أعرف أن هذه أفعالهم، أمسكت بي أمي في قوة ورجَتني زوجتي أن أنسى الموضوع؛ فهؤلاء أهل شرّ.

كان (جودة) قد انتقل إلى سكني شقة تملكها في البناية المقابلة لنا، لا تتساءل: من أين أتي بالمال؟، كان يقوم بتجارة المواد الممنوعة مع أصدقائه حتى صار المتعهد الأول لها بالمنطقة، وصار شارعنا الذي كان هادئا مرتعاً لكل ذي نفس خبيثة، سمعنا أن هناك امراة تأتي إلي شقّته متخفية في زيّ رجل، ويومها يصبح بيته قبلة للزوار من أجل علاقة عابرة مع تلك المرأة.

لم أحتمل أن أستمع لكلام أمي ولا لتوسلات زوجتي، وانطلقت للشارع أبغي الثأر لكرامتي، وجدته يدخن سيجارة من غير اكتراثٍ، صحتُ به:

— هذه ليست أخلاق الرجال.

ألقى بالسيجارة جانباً، وهو يبتسم في وضاعة قائلاً:

— وماذا تعرف عن الرجال يا تربية النساء؟

عيب الذين تربوا علي الأدب الزائد أنهم لا يستطيعون خوض شجار حقيقي بنجاح، هم لا ينتصرون في معارك اللسان ولا اليد، جاءني هذا الخاطر فأحنقني أكثر، وشعرت بالغضب، ولم أعمل عقلي، بل انطلقت نحوه؛ لأضربه.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا ملقى على الأرض مثل جوال دقيق انقطعت أطرافه، شعرت أن كرامتي تبعثرت، وأحنقني أكثر صوت عويل وصراخ نسائي في الشرفة.

انتبه لهنّ (جودة) فانتشى أكثر وهو ينهال عليَّ ضرباً وركلاً، لم أعد أشعر بشيء، تكوّمت علي نفسي مثل وضعية الجنين، ولكن هذا لم يرحمني، ضرب الجسد أخفّ وطأة من ضرب الروح، الشارع كله يتطلع ولا أحد يمدّ يده لمنع ذلك.

أخذ أحد أصدقاء جودة عصا وضرب بها حبل غسيل معلقاً ليسقطه، التقطا ثوباً نسائياً منشوراً وألبساني أياه، وهما يزفانني إلى بيتي وسط ضحكات ضباع أوغاد.

تلك الليلة انتقلت أنا أيضاً من الشارع، خرجت منه تحت جنح الظلام مع أهل بيتي فلا مجال لعين شامتة فيَّ أو متعاطفة معي، لقد كنت واهماً حينما ظننت أننا يمكننا أن نتقاسمه، الشارع صار الآن بالكامل لهم.

تمت

حياتي بعد فتح اللّه عبود

أومن أن كل إنسان تسير حياته بشكل جيدٍ حتى يدخل فيها (فتح الله عبود) بالتأكيد حياتك تتغير للأسوإ إذا دخل فيها أمثال،هـ وأنت تعرف ما الذي أقصده؟، هل تعرف ذلك الرجل الذي وعدك بعملٍ ثم تخلى عنك، وترك حياتك تتحول لفوضى وكأنك ريشة في مهبّ الريح، هل تعرفين تلك المرأة التي أفسدت العلاقة بينك وبين زوجك ثم رحلت وتركتك تجنين ثمار الخسارة؟، هل تعرف ذلك الشاب الذي نصحك نصيحة بالعدول عن مشروع تجاري ثم تبيّن لك أنها نصيحة ليست في محلّها وبدأت تتعثر من يومها إلى الآن.

باختصار كلهم (فتح الله عبود)، ومن بداية معرفتك به أو وجوده في حياتك تبدأ التأريخ للأحداث كالتالي (ق.ف.ع) قبل فتح الله عبود ثم (ب.ف.ع) بعد فتح الله عبود.

(فتح الله) أسلوب حياة مهما تعددت الشخصيات.

أما كيف ظهر في حياتي، فهذا ما حدث.

كنت أقود سيارتي بعد عودتي من غداءٍ جميل بالخارج مع زوجتي، لم نكن قد أنجبنا أولادنا بعد ممّا يسر لنا الخروج والتنزه بدون أي منغصات، وبينما توقفت السيارة في إحدى إشارات المرور رأيته.

إنه (فتح الله) بشحمه ولحمه.

لم أكن قد رأيته منذ نحو سبع سنوات تقريباً منذ أن أنهيت دراستي الجامعية،

لم يكن في نفس القسم الذي أدرس به، فقد كان في قسم علم الاجتماع بكلية الآداب وكنت أنا بقسم اللغات الشرقية، ولكني كنت أراه كثيراً في مجموعتنا وكأنه واحد منا، كان خفيف الدم ومرحاً طوال الوقت، ولديه موهبة في تقليد كل الفنانين ممّا مكّنه من تقليد كل شخصياتنا وطريقتنا في الحكي والمشي.

كان يبدو من منظره أنه يسرع للقاء ما فنزلت من السيارة، وأنا أناديه بصوت عالٍ قائلاً:

— (فتح الله) يا (فتح الله).

التفت للوراء دون أن يخفض من سرعته قبل أن يتوقّف، وينظر لي ملياً ثم تتهلل أساريره قائلا:

— (محمود عبد الغني) أهلا يا رجل، عاش مَن رآك.

احتضنني في حرارة حقيقية وهو يربت على كتفي ويطبع عليه القبلات، أشرت إلي سيارتي أدعوه للركوب وقد لاحظت أنه في طريقه لمكانٍ ما مسرعاً، شكرني وهو يتجه نحو السيارة ويركب في الخلف محيِّياً زوجتي في مودة.

كنت قد خمنت أنه يعاني لا بد من مشاكل مالية فثيابه شبه مهترئة ورائحة جسده تشي بأنه لم يستحمّ منذ فترة ولكني لم أكترت، أعظم اللحظات في حياة الإنسان حينما يقابل رفاقه القدامى ويتذكر الأيام الخوالي، ولن أفسدها بمثل تلك السفاسف.

قال لي في فرح صبياني:

— والله زمان يا (محمود) عاش مَن رآك، أين اختفيت بعد الكلية يا رجل؟، لم نسمع عنك شيئاً

أجبت وأنا أتحرك من إشارة المرورالمتوقفة:

— والله ظروف يا (فتح الله)، أخذت إعفاء من الجيش ثم وجدت عقد عمل في (الكويت) بقيت هناك خمس سنوات ثم عدت؛ لأعمل في شركة (أطلس) هنا في (القاهرة).

— طوال حياتك مجتهد وذكي.

ثم نظر إلى زوجتي ليخاطبها قائلاً:

— أتعلمين يا سيدتي؟، زوجك (محمود) هذا كان من أنبه وأذكى شباب الكلية كلهم، طوال عمره له كاريزما وشخصية.

ابتسمت لذلك الإطراء أمام زوجتي وبادلتني زوجتي الابتسام وقد أحسّت بالفخر، لم يكن (فتح الله) صادقاً فيما يقول، ولكن القليل من النفاق لن يضر أحداً هنا.

قلت له متسائلاً:

— وماذا عنك أنتَ، كيف هي أحوالك؟

قال في ابتسامة باهتة:

— الحمد لله يا (محمود)، أنا أعمل حاليا مضيفاً علي سفينة سياحية بين (الأقصر) و(أسوان) منذ بضعة شهور تقريباً، ولكني في إجازة الآن؛ لأن السفينة السياحية تحت الصيانة.

— وقبل ذلك؟

— قبل ذلك تنقلت بين عدة مهن، عملتُ مرة مندوب مبيعات، ومرة حارس أمن، ومرة محاسباً، يعني الدنيا تسير بي ليس إلا.

لم أرد أن أثقل عليه، وقد شعرت بأن أحواله ليست على ما يرام فقلت له:

— خيرٌ، لنكن على تواصل، بالمناسبة إلى أين تذهب؟

— مصر الجديدة، هل هي في طريقك؟

لم تكن حقاً في طريقي، بل كانت بعيدة جداً، ولكني قلت إنها فرصة للحديث وخدمة أسديها له كما أن اليوم إجازة بالنسبة لي على أي حال فقلت له:

— بسيطة، لا تقلق سأوصلكَ، فقط أعطني العنوان بالتفصيل.

أعطاني العنوان وهو يقول:

— أصيل يا (محمود)، لم تتغير، كريم وشهم كما عهدتك دائماً، هل تذكر يوم كنت تدعونا على مثلجات لكل المجموعة آخر يوم في الامتحانات.

— آه، يا لها من أيام!، ليتها تعود.

— هل تعلم أين هم الآن؟

— نعم (شادي) و(محسن) في الإمارات، و(أحمد) عاد إلى بلدته، و(إبراهيم) يعمل في السفارة المكسيكية، أما (ممدوح) فهو الآن مرشد سياحي، ولا أدري عن (سمير) شيئاً، انقطعت أخباره منذ ذلك الحين.

بان الحزن على وجهه وهو يقول:

— لا تحدثني عن (سمير)، قابلته بعد الدراسة وقصدته في شيء وكان نذلاً.

— للدرجة هذه، ماذا فعل؟

— لا داعي لذكر القصة، هو نذل ويكفي.

لم أكن أحب تلك النوعية من إطلاق الأحكام بدون تبريرٍ، كنت أوقن أن منظور الإنسان للآخرين أحياناً يخضع للخطإ أحياناً، فمثلاً مَن لم يشهد معك

زوراً لا يُعتبَر نذلاً من وجهة النظر الأخلاقية والقانونية.

نحَّى حزنه جانباً وهو يقول:

— وماذا عن (مها)؟

صمت للحظة وأنا أقول:

— لا أعلم عنها شيئاً.

ضحك متخابثا دون أن يهتم لوجود زوجتي قائلاً:

— (مها) يا رجل، معقول ألّا تعرف عنها شيئاً.

التفت إلى زوجتي التي أنصتت السمع قائلاً:

— زوجك يا سيدتي، كان الفتى الوسيم في المجموعة، وبنات الكلية كلهن عشقْنه، ولكن (مها) كانت المقربة.

فلتحلّ عليك صاعقة من السماء يا (فتح الله)، أيّ كلام هذا الذي تقوله ولزوجتي وأمامي؟، ابتسمَتْ زوجتي كتماً للغيظ وهي تقول:

— كلّ الناس تحب القمر، ولكن المهم مَن يحبّ القمر؟

كنت أعلم أن رجاحة عقلها تلك سيليها جنونٌ مطبقٌ حينما نصل إلي المنزل فآثرت الصمت و(فتح الله) يقول:

— لابد أن نتوصل ونحدد الشمل، كم رقم هاتفك؟

أعطيته الرقم في سرعةٍ وهو يكتبه على راحة يده فلم يكن معه ورقة ثم قال لي:

— لقد وصلنا، الشارع القادم عن يمينك.

أنزلته وأنا أتنفس الصعداء، ثم شكرني وهو يعد بالاتصال، غادرت المكان

مع زوجتي بعد كلمات مودة غير صادقة من ناحيتي، أعلم أننا حين نقابل أصدقاء قدامي نتبادل المودة الحارة ثم المجاملات، ويعد بعضنا بعضاً بالاتصال، ولكنه لا يحدث وتتباعد المسافات مرة أخرى.

حينما عدت إلى البيت لاحظت أن زوجتي لم تتبادل معي حديثاً، بل دخلت من تلقاء نفسها؛ لتخلع ثيابها وتضع عنها زينتها فقلت لها:

— كان يوماً جميلاً.

— لا بدّ لكل شجرة جميلة من بومة تقف عليها.

— ماذا تقصدين؟

— صديقك السخيف هذا.

— يا (مروة)، إنه مسكين.

— مسكين؟!، إنّه قليل الذوق، كيف يتحدث عن حب قديم لك أمامي؟!

— لم يكن حباً قديماً، كانت بنتاً في المجموعة فقط.

— نعَم، بنت واحدة، وتميل لفتى واحدٍ.

— هذا الموضوع قديمٌ، ومضت عليه سنوات.

اقتربتُ منها باسماً وأنا أحتضنها قائلاً:

— هل تغارين عليّ؟

— طبعاً، ألست زوجي؟

— يا حبّي، عيوني هذا خُلقتْ لكي تراكِ فقط، أنت الأولي والأخيرة مهما طال بي الزمان.

صمتت زوجتي وهي تتملّص مني في دلالٍ، وقد راقتها الكلمات الأخيرة

قبل أن تلتفت لي معقّبة:

— هذا لا يمنع أنه قليل الذوق.

في نفسي هتفت: تبًّا لك يا (فتح الله)، كان يوماً جميلاً، وربما انتهلا بليلةٍ من العنفوان الرومانسيّ، ولكن ظهر فجأة ليفسدها، يا ليتني لم أنادِه.

بدّلت ثيابي، وخلدت للراحة على أريكتي المفضلة لأرى رقماً غريباً يرنّ عليّ، أجبت في سرعة:

— السلام عليكم.

— وعليكم السلام يا (محمود).

انتبهت لصوت (فتح الله)، ما أسرع ما اتصلَ، قلت في حماس مفتعل:

— (فتح الله) أهلاً وسهلاً.

— أردت فقط أن أشكرك على توصيلي في ميعادي.

— لا شكر على واجبٍ، خيرك سابق.

— ولكن هذه الجلسة لا تحتسب، يجب أن نكررها.

— إن شاء الله.

— ماذا عن جدولك غداً؟

— لا، للأسف، غداً عندي عمل.

— حسناً، ماذا عن بعد غدٍ؟

— أيضاً عندي عمل.

كنت صادقاً فيما أقول، ولكني تعمدت أن أذكره حتى أتهرّب من ذلك

الموعد، فقال لي غير مستسلمٍ.

— ماذا عن ليلة بعد غدٍ، هل تعمل ليلاً؟

— لا، ولكن حجزت لزوجتي عند الطبيب.

— سلامتها، كانت تبدو بخيرٍ

— لا، هذا طبيب أسنان عادي.

— آه، حسناً، ماذا عن الجمعة عصراً؟

كان لا يكفّ عن المحاولة، فقلت في نفسي: وما يضرني لقاؤه؛ لألتقي به وتكون فرصة لتذكر الأيام الخالية؟، فقلت له:

— هذا جيد، متى نلتقي؟، وأين؟

— الرابعة عصراً في مقهى عين الوردة الموجود بالمنيل، هل تعرفه؟

— لا أعرفه، ولكن سوف أسأل.

— حسناً يا صديقي، إلى اللقاء.

مضتْ أيام قبل لقائي مع (فتح الله)، ذهبت إليه في موعدي، وجدته جالساً ومعه شخص آخر لا أعرفه، لم أعرف أنه دعا آخرين، شعرت بالإحراج ولكني صافحتهما في حرارةٍ، وتولي (فتح الله) التقديم:

— الأستاذ (محمود عبد الغني) صديق قديم وحميم، موظف بشركة بالقاهرة، والأستاذ (زاهر محمود) رجل أعمال.

لم يكن الرجل يبدو في هيئة رجال الأعمال، ولو كانت هذه هيئة رجال الأعمال إذن لا شك هي أعمال مشبوهة، ولكني لم أكترث قليلاً، دار الحديث ودّيّاً في البداية و(فتح الله) يتكلم عن كل شيء إلا عن أيامنا الخوالي

التي اجتمعنا لنتذكرها، تكلم عن سفره الفاشل إلي (ليبيا)، تكلم عن غلاء الأسعار، بل تكلم عن إغتيال (السادات) ومَن وراءه؟، تجاوبت معه ومع صديقه بالاستماع أكثر منه بالمشاركة، مضت ساعة ورأيت الرجل يهمّ بالانصراف وهو يطلب الحساب من نادل المقهى، ولكن (فتح الله) أصر أن الحساب عنده، شكره الرجل وانصرف.

مضيت أتحدث مع (فتح الله) الذي انطلق يقول:

— (زاهر) هذا يعجبك، رجل أعمال ولكن بدون رأس مال، يعمل في كل شيء، سمسرة عقارية، بيع وشراء، تخليص معاملات كلها بدون رأس مال، ولكنه يكسب كثيراً.

— هل تعرفه منذ زمن؟

— لا، عرفته منذ يومين فقط، ولكن فرصة نتعلّم، ماذا نفعل نحن في الحياة سوى التعلم؟

— أين تعرفت عليه؟

— في القطار من أسوان إلى هنا.

— رجل أعمال ويركب القطار.

— هؤلاء هم مَن يعرفون قيمة المال، لذا يحافظون عليه ولا يهدرونه.

لم أستشعر نفس المودة القديمة مع (فتح الله) قبل أن يقول لي:

— زوجتك بنت حلال، أليس لها أخوات بنات للزواج؟

— لديها أختان ولكن متزوجتان، ألم تتزوج إلى الآن؟

— لا، والله ليس هناك نصيب، ولكني أبحث.

— هل هناك مواصفات معينة؟

— يعني، تكون معي على الحلوة والمرة.

فهمت من كلامه أنه يبغي زوجة بلا متطلبات من أي نوع، زوجة مجاناً، فلم أعرض خدماتي عليه، عاد يسأل:

— ما وظيفتك في الشركة الجديدة؟

— مدير الشركة.

— ممتاز، تستأهل وأكثر، هل تقبض جيداً هناك لتعوضك عن (الكويت).

صدقت زوجتي حينما قالت: إنه قليل الذوق، أول مبادئ الحياة ألا تسأل رجلاً عن راتبه، ولا امراة عن عمرها، فقلت له مقتضباً:

— الحمد لله.

— هل لديك وظائف شاغرة؟

— نعَم، هناك، لمن؟

— لي بالطبع، أنا أبحث عن عمل هذه الأيام، بالواقع يوم قابلتني كنت في مقابلة عمل في مصر الجديدة، ولكني لم أوفق.

— لا بأس، ولكن الأعمال التي لديّ هي لعمّالٍ، لن تناسبك.

— يا سيدي، نبدأ بعامل ونكبر في الوظيفة، هل الرواتب جيدة؟

— مرتبات عمالّ، بالتأكيد ليست جيدة، يعني عادية.

حار قليلاً، كنت أتهرب منه قبل أن أشعر بالشفقة نحوه فأقول له:

— حسناً، لا تقلق، أرسل لي سيرتك الذاتية وأنا سأرسلها إلى أصدقاء مقربين لي.

— ليس لدي سيرة ذاتية، أنا أتقدم هكذا، وأملأ بطاقة توظيف.

— حسناً، أرسل لي تفاصيلك في رسالة، وأنا سأتولّى اللازم.

شعرت بتأخري عن البيت، فاستأذنت منه في الانصراف، رأيته ينهض معي دون أن يطلب الحساب من النادل، فناديت النادل حتى لا يمسك بنا كهاربين من الحساب، لم يحرك (فتح الله) ساكناً، ولم يمد يده حتى في جيبه على سبيل المجاملة، فسألت عن حساب المائدة، كان الحساب كبيراً، ولكني دفعته منعاً للإحراج.

في اليوم التالي أخبرت صديقاً لي صاحب شركة إلكترونيات، ورجوته أن يجد عملاً لـ (فتح الله)، وعدني الرجل بذلك، وصدقت أنه سيفي بوعده؛ فقد كان يكنّ مودة خاصة لي.

لم أرَ (فتح الله) في الأيام الثلاثة التالية، فقدرت أن أموره سارت على ما يرام، ولكن في اليوم الرابع رأيته يتصل بي وكان غاضباً للغاية، بدأ حديثه بعبارة:

— صاحب الشركة الذي جعلتني أعمل عنده قليل الأدب، وليس عنده ذوقٌ.

— ماذا حدث؟

— عصبيّ طوال الوقت، واليوم فصلني من العمل.

كانت أول مرة يخبرني أحدٌ أن ذلك الرجل به تلك الصفات، فقد عهدته حسن الأخلاق صبوراً متواضعاً، فقلت له مهدئاً:

— آسف لو حدثت لك إساءة هناك، دعني أستطلع الأمر.

أغلقت الهاتف واتصلت بصاحب الشركة، تجاهل عدة مكالمات لي قبل أن يرد في هدوءٍ:

— السلام عليكم أستاذ (محمود)، صاحبك الذي أرسلته للعمل لديّ قليل

الأدب، وليس عنده ذوق.

— ماذا حدث؟

— طوال الوقت كسولٌ، ولا يؤدي العمل كما يُطلب منه، ثم يخبر العمال أنه قريبي، وأنه يعرفني معرفة شخصية حتى يشعرهم بأهميته، وفاجأته مرتين نائماً أثناء الدوام، واليوم طلب من سكرتيرتي رقم هاتفها الشخصي، فقدت أعصابي نحوه وطردته، أنا آسف لوتتحدث بشأنه، فانسَ الموضوع، أرجوكَ.

شعرت بالخجل الشديد ممَّا يقول، فاعتذرت له وأغلقت الاتصال.

تبَّاً لك يا (فتح الله)، لقد حولت العصفور الوديع إلي وحش كاسر في غضون ثلاثة أيام، ما الذي دهاك؟

حاولت تفادي الاتصال بـ (فتح الله) بعد ذلك، ولكن بعد يومين لا أكثر وجدته يعاود الاتصال بي، أجبته في هدوء:

— السلام عليكم يا (فتح الله).

— عليكم السلام يا صديقي.

— آسفٌ، فشلت في إعادتك للعمل.

— أنا لا أريد العمل لدى هذا الأحمق، لقد وجدت عملاً بالفعل.

— طيّب، الحمد لله على كل حال.

— ولكن أريدك أن تساعدني.

— كيف؟، تأمرني.

— أعمل الآن مع (زاهر) في مجال التوريدات، وكنا نريد أن نقدم عرضاً

لشركتك، لقد سمعنا أنكم تشترون زيًّاً للعمال الآن لأجل السنة القادمة، ونرى أنك يمكن أن تساعدنا في الحصول على ذلك العرض.

— ولكن هناك إدارة مشتريات خاصّة بذلك، يمكنك التقدم عبرها.

— أنت الكل في الكل، ومن المؤكَّد أنَّ توجيهاتك ستفي بالغرض.

لم أكن أحب نظام الأمر المباشر في العمل، ولكني وجدت نفسي مضطراً لمساعدته، فاتصلت بمدير المشتريات وأمرته أن يشتري من (فتح الله) زيّ العمال للسنة الجديدة.

بعد أسبوعين فوجئت بصاحب الشركة يستدعيني في مكتبه، كان الاستدعاء مفاجئاً، فهذا الرجل لديه عدة شركات يديرها، واستدعاء مدير إحدى الشركات معناه شيء من اثنين، إما مكافأة عظيمة، وإما عقاب عظيم.

ذهبت بسرعة وأنا أمنّي نفسي بأن يكون لديه مكافأة لي، ولكني وجدته حادًّاً في الكلام، وهو يسألني عن ملابس العمال التي تم شراؤها بالأمر المباشر.

قلت له مدافعاً:

— هذا أمر عاديّ يُترك لتقدير مدير كل شركة.

— هل رأيت تلك الملابس؟

لم أكن قد رأيتها، فقلت له:

— ما بها؟

أخرج إحداها من صندوق ورقيّ أمامه وهو يقول:

— انظر ما بها.

كانت الملابس تبدو قديمة وكأنها مستعملة، وكذلك تنافي الزي العام

المخصّص للعمال، وخامتها سيئة للغاية، عاودني صاحب الشركة بالسؤال:

— يمكنني أن أعتبرك إحدي حالتين، إما أنك تعلم بأنها بضاعة سيئة وحينها ستعاقب بتهمة التدليس على الشركة، وإما أنك لا تعلم بأنها بضاعة سيئة وحينها ستعاقب بتهمة الإهمال في العمل.

لم يكن في حاجة إلى ذبحي بأيّ من السلاحين حيث خفضت رأسي قائلاً:

— لا داعي لذلك الكلام، أنا أتحمل المسؤولية، سأقدم استقالتي.

خرجت من عند صاحب الشركة والأرض تكاد تميد بي، لا أدري إلى أين أذهب؟، لم أترك عملي في يوم من الأيام إلا إلى عمل آخر، قدرت أن سيرتي الذاتية القوية ستكفل لي عملاً آخر قريباً.

زوجتي استقبلت الخبر باللوم والتقريع، وقالت لي: إن ذلك المدعو (فتح الله) لا يجلب سوى الخراب، علي أيّ حال طمأنتها أني سأجد عملاً قريباً، ولا داعي للقلق، ولكن مرت ستة شهور وأنا أطوف على كل الشركات دون أملٍ حتى استسلمت للأمر الواقع بعد أن نفدت أموالي، وبعت سيارتي لأقبل بوظيفة رئيس قطاع بإحدى الشركات الصغيرة.

مرت شهور في منصبي هذا، ولا شيء يتحسن في حياتي، أسير من فوضى إلى أخرى، وكأني أطفئ حرائق غابة اشتعلت دون توقّع حتى كان اليوم الذي كنت أمرّ به؛ لأستقل سيارة أجرة في طريق عودتي إلى المنزل لأجد هناك شخصاً أعرفه يتسوّل من سائق الأجرة أيّ شيء ليأكل به.

أعرف ذلك الوجه المختفي خلف الملابس الرثة والوجه المتسخ.

إنه (سمير) صديقي القديم من أيام الدراسة.

لم أكن أودّ أن أذكّره بنفسي، ولكن داهمني الفضول، فقمت إليه وأنا أقول له:

— (سمير)، هل هذا أنت؟

تطلّع لي في وهنٍ وحزنٍ؛ لأن أحداً رآه هكذا في هذه الحالة المزرية، فعدتُ لأساله في دهشة:

— كيف صرت إلى هذا؟، ما الذي حدث لك؟

نظر لي شارداً وكأنما يتطلع إلى مجهولٍ قبل أن يقول بصوت عميقٍ وكأنه يخرج من بئرٍ لا قرار لها وهو يشير إلى الفراغ:

— (فتح الله عبود)

تمت

المصباح السحري

خرج (علي) غاضباً من بيته، لا يودّ البقاء هناك أكثر من ذلك وهو يستمع إلى شكوى زوجته المتكررة من تضييقه في الإنفاق عليها، ليتها تعلم أن الأمر ليس بيده، فالعين بصيرة واليد قصيرة، ليت كلّ الزوجات تعلم الفرق بين البخل وضيق اليد.

ساقته قدماه في غير وعي منه إلى بقايا أخربة لمنزل قديمٍ لم يطأه بشرٌ منذ سنين، شعر بالتعب، اتكأ على أحد جدران البيت المهدم طلباً للراحة، شعر بالرغبة في النوم ليس تعباً لكن هرباً من تفكير عقيم، ودّ لو نام في مكانه ولكن ماذا سيقولون لو مرّ به أحد ما ورآه نائماً على التراب بعيداً عن بيته؟

مشكلة الأزواج أنهم يكابرون، فيُعلون من رأي الناس على ما يرونه صواباً، ولولا الخوف من كلام الناس لما بقي للزواج كنظام اجتماعي من أثر، لاح في عقله خاطر أن ينام داخل المنزل في إحدى الغرف المتهدمة بالداخل.

أحزنه أن حضن جدار أصبح أحنّ عليه من حضن زوجته، كيف بالله تكون سكناً له وهي التي تضايقه كلما ذهب أو راح بكلامها؟!

طاوع عقله ودخل لينام برهة داخل البيت، توسّد إحدى يديه وهو يلتحف بالسقف الذي تهاوى معظه، شعر بشيءٍ أسفل ذراعه، ربما هي صخرة صغيرة، مد يدها ينتزعها؛ ليرميها بعيداً، بان من تحتها شيء معدني لامع، جذبه في فضول ليرى الشيء يتكشّف عن مصباح يشبه المصابيح العتيقة في قصص ألف ليلة وليلة.

لم يكن المصباح قديماً، يوحي أنه حديث الصنع، ربما هو تقليد جيد،

مصنوع من الفضة، ترى كم يساوي لو باعه؟، هل يأتيه بمال يريح قلب زوجته؟

تساءل في قرارة نفسه أتراه مسكوناً بجني أومارد كما قرأ وسمع في الحكايات؟، مد يده في استخفاف وفرك المصباح في قوة؛ ليستكشف، لم يحدث شيء، حمد الله أنه لم يحدث شيء فلربّما بال على نفسه من شدة الخوف لو خرج له جني، وضع المصباح بجواره ثم نام في عمقٍ.

بعد فترة لا يدرك طولها شعر بيد تهزه في عنف، فتح عينيه منزعجاً ليفاجأ بأقدام ضخمة، أقدام مشعرة تنتهي إلى رأس عظيم، أمامه كائن يبلغ من الطول ثلاثة أمتار على الأقل، خليط من البشر ومخلوق آخر، كان ينظر له في ترقب، لا ريب أن ذلك هو خادم المصباح، إذن الحكايات بها شيء من الصحة.

ود لو أن قلبه يسعفه فيصاب بنوبة قلبية ويموت أو على الأقل يفقد الوعي، ولكن حتى هذه الأمنيات عزيزة حينما تطلبها.

أخذ في الارتجاف ولاحظ خادم المصباح ذلك فقال له بصوت عميق:

— لا تخف، أنا خادم المصباح، مارد الأمنيات، اطلب تُجب، ومُرْ تُطَع.

لم يصدق (علي) أذنيه، أحقيقة هذا أم خيال؟

هتف برجاء يائس:

— هل هذا حقيقي؟، كم لديّ من الأمنيات لتحقيقها؟

— فقط واحدة.

— واحدة فقط؟، ألم يكونوا سبعاً من قبل؟

— لا، طوال الوقت أحقّق أمنية واحدة، أنا خادم ألف مصباح، أتنقّل من واحد إلى آخر فوري تنفيذي لهذه الأمنية، وبعدها أصبح حراً للأبد، ماذا تطلب؟، أمامك يوم وليلة لطلبها، وإلا أصبح حراً لا سلطة لك عليَّ.

صاح (علي) وهو ينهض ليوقفه بيده قائلاً:

— تمهّل، ألا يمكن أن تكون أمنيتي هي زيادة عدد الأمنيات؟

— لا يمكن، هي أمنية واحدة لا غير، ولا تشمل ما يقوم به الربّ وحده.

— هذا يحتاج إلى التفكير، فلدي الكثير من الأشياء التي أريدها.

— إذن اطلب المال، ودعنا ننهِ الأمر.

— لا، الكل يطلبون المال، ولكني أشعر أنني أريد أشياء أكثر من المال.

— إذن سأنصرف الآن، وسأعود حينما تريد مني العودة، فقط افرك المصباح مرة أخرى، ولكن تذكر أمامك اليوم والليلة فقط.

اختفى الجني في لحظات ونهض (علي) يحمل المصباح في حرصٍ وهو ينفض عن ثيابه التراب ويخرج من البيت شارداً.

أمامه يوم وليلة ليفكر، أي بضع وعشرون ساعةً فقط.

لا يعرف لماذا لم يختر المال مع أنه الخيار الأمثل لمن هو مثله يشكو من ضيق الحال؟، شعر أنه يود طلب شيء آخر ولكن ما هو؟، عقله لا يهتدي إلى شيء.

سار على غير هدى حتي وصل إلى مقهى شعبي يعرفه، رأى أصدقاءه الثلاثة المقربين (داوود) و(ماجد) و(نديم) يدعونه للجلوس فلبّى دعوتهم وهو يتأكّد من إخفاء المصباح جيداً.

جلس بينهم شارداً، لم يفقه كثيراً من حديثهم قبل أن تواتيه فكرة فباغتهم بالسؤال:

— تخيّلوا لو خرج لكم مارد من مصباح سحري وعلى وشك تنفيذ أمنية واحدة فقط لكم، ترى ماذا ستتمنون؟

سأله (داوود) في تعجب:

— ألم يكونوا سبع أمانيّ كما في الحكايات؟

أجابه (علي) معقباً:

— بل هي واحدة فقط، هو أخبرني هذا.

سأله (ماجد) في دهشة:

— مَن هو؟

— لا عليك، هيا قولوا لي ماذا ستتمنون؟

أتته كلمات متناثرة تتراوح ما بين (مال) و(نقود) و(ثروة)، كلها مترادفات لنفس الأمنية، نظر لهم جميعاً في دهشة وهو يقول:

— أليس لديكم سوى المال كأمنية تطلبونها، أليس هناك شيء آخر؟

صمتوا جميعاً وتطلعوا لبعضهم في حيرة قبل أن يتنهد (نديم) قائلاً:

— لو لم يكن المال، فأنا أتمنى أن يعيد لي الله أمي.

رقّت له القلوب، كم هي من أمنية جميلة!، ولكن أمنيات المصباح لا تشمل إعادة الموتى إلى الحياة.

عقب (داوود) قائلاً:

— وأنا أتمنى أن يعود ابني كما كان من قبل.

ربت (عليّ) على ظهره وهو يعلم علم اليقين أن أمنيات المصباح لا تشمل شفاء المرضى ولا إعادة المبتور من الجسد.

قال (ماجد):

— أنا أريد أن أدخل جنة الخلد.

عذراً يا هذا، مفتاح الجنة ليس من بين قدرات جن المصباح، هم أنفسهم

لا يعرفون كيف يصلون لمفتاح الجنة؟

لم يشعر الرجل بأنهم قد قدّموا له إجابات لسؤاله، ما الأمنية الوحيدة التي يعطيها له الجني وتسعده حقاً؟، هو لن يحيي له ميتاً، ولن يشفي له مريضاً، ولن يدخله جنة خالدة.

فكر مرة أخرى أن يطلب المال ولكنه قال لنفسه:

« تمهّل؛ ففي الوقت متسع، هذه أمنية واحدة، ولن أضيعها سدى».

كان يودّ لو أن قدرات الجن الذين يخدمون المصابيح السحرية غير محدودة، إذن لطلب القضاء على الفقر والمرض والجهل والظلم، ولأمرهم بإصلاح الطرق وحفر الأنهار وزراعة الصحراء، ولكنه يعلم أن القدرات محدودة والأماني كذلك.

مرّ في طريقه بطفل صغير يبكي، رق له قلبه بشدة، اقترب منه متسائلاً عن الذي يبكيه، أشار الطفل إلي البحيرة، كان كلبه قد سقط في الماء وهو يغالب الغرق أمام عينيه، همّ أن يلقي بنفسه في الماء لإنقاذ الكلب، ولكنه عضّ على نواجده؛ لأنه لا يجيد السباحة.

تذكر المصباح والخادم ففركه في سرعةٍ.

خرج له الجني متسائلاً: ما هي طلباته؟

أشار الرجل إلي الكلب وهو يقول بسرعة:

— أنقذ هذا الكلب، هذه هي أمنيتي.

في لمح البصر قام الجني بإخراج الكلب إلى ضفة البحيرة وانصرف مختفياً، ابتسم الطفل في فرح عميق وهو يحتضن كلبه ويمضي، نظر الرجل إلى الطفل في سعادة مماثلة، قبل أن يسأل نفسه وهو يتفحّص المصباح، ترى كم يساوي لو باعه، هل يأتيه بمال يريح قلب زوجته؟

فينوس

توقف كثيراً أمامها وهو يتأمل الفتنة البادية على ملامحها، يودّ لو كان هو النّحات الذي أخرج من الصخر ذلك الجمال الفتان، ترى هل صاغها الفنان من خياله أم كانت أمامه حوراء يرسمها؟، يود لو رأى المرأة التي وقفت لتلهمَ الأصابع التي نحتت هذا التمثال الرائع.

فينوس، آه يا آلهة الجمال، لو اكتمل صنعك فأصبحَ لك ذراعان، آه لو نطق هذا الجمال الصامت ليقول لي: لِمَ ليس لديك أطراف؟، شعر بأن التمثال يتحرّك، فأغمض عينيه في سرعة وعاد ليفتحهما، هكذا خيل له قبل أن تدب الحياة في التمثال وتبتسم له قائلة بصوت عذب:

— أيها الفتي، لقد انتهكت حرمة الجمال الصامت.

— كانت مجرد أسئلة، أردت الإجابة عنها.

— ولماذا؟

— لأنك سرقت قلبي من رؤياك.

— وما عقوبة السارق؟

— في عقيدة الحب يحتضن السارق ويُسجن مائة عام بين ضلوعي، وفي عقيدة الناس تقطع يده.

— وهذا ما حدث لي يا فتى؟، الجمال يا فتى هو أكبر سارق للقلوب، يسلبها

من بين الصدور فتتبعه أينما حلّ أو سار، وتفعل له كل ما يشتهي، ولقد سرقت بجمالي ألباب وقلوب كثير من العشاق فطبّقوا عليّ عقوبة السرقة، فقطعوا يسراي؛ ولأني لا أرتدع عن السرقة فقد عدت لأسطو على قلوب الشباب لأتلاعب بها في ميادين الحب والغرام فقطعوا لي يدي الأخرى.

— ألست فينوس؟

— نعَم، أنا فينوس ربة الحسن والجمال.

— وفي نفس الوقت تسرقين؟

— أسرق القلوب فقط.

— وهل اكتفيت أم ما زلت على سرقتك للقلوب؟

— لم يبقَ لديّ ما أخاف عليه، لقد قطعوا يديّ فداء لحد سرقتي للقلوب، فحرروني، صدقني: يداي كانتا مكبلتين والآن أنا حرة، أسرق بنظرة من عيني، وبسمة من شفتي، ولمحة إغراء من جسدي، فالسرقة يا فتي لا تحتاج إلى يدين.

تمت

زوجة أبي

اسمها (منى) ولكني كنت أدعوها زوجة أبي، ولذلك قصة طريفة، كانت جميلة، بضّة الجسد، بيضاء البشرة مع حمرة خفيفة على الخدين وإن كان يعيبها أنها تطمس جمال وجهها تحت زينة ثقيلة، ولكن خفة دمعها وغنجها على الرجال لم أجد لهما مثيلاً فيمَن ورد عليّ من النساء، جاوزت السابعة والثلاثين وظلّت بكراً لم يدخل قلعتها فارس، سألتها ذات مرة عن ذلك فقالت:

— تقدم لي الكثيرون، لن تصدق إن قلت لك إنّ كلهم ذوو منصب ومال ووسامة، ولكني رفضت.

— أمتعلقة أنت بحبال حبّ قديم واهية؟

— لا، بل أمَّلتُ أن أجد الرجل المناسب، أتعرف لو أنك أكبر سناً بنحو خمسة عشر عاماً لتزوجتكَ، فأنت فيكَ كل ما أشتهي.

— ألا أصلح لكِ وأنا في مثل سني هذا، ابن العشرين ريحاناً تشمين.

— ربما تصلح لي اليوم، ولكن ماذا بعد عشر سنوات حينما تكون على مشارف الثلاثين، وأنا أبلغ الخمسين، ستشعر بمدى البؤس الذي أنت فيه، وأنا لا أرضى لك هذا.

صمت للحظة قبل أن أقول:

— ما رأيك أن تتزوجي أبي؟

— هل هو مثلك شكلاً وقلباً؟

— بل أفضل مني، مُنح طيبة لم يغيرها الزمان، وجسداً لم ينشأ على ترف المدينة.

— ليكنْ، قد قبلت أباك زوجاً.

وهكذا صرت أدعوها زوجة أبي، وإن لم يحدث هذا الزواج في الحقيقة، كانت تسألني دائماً ما أخبار زوجي؟، ووالدتكَ هل تشاجرت معه أو لا؟، بل ترسل معي السلام له وعبارات الحب المازحة وهي لم ترَه أبداً في حياتها، بل تحسب في مزاحٍ خفيفٍ كم سيكون نصيبها من الميراث حتى سألتها:

— ما زلت لا أرى سبباً لرفضك آخر من تقدم لك، إنه ممتاز.

— بأي مقياس؟

— بكل المقاييس التي يقدرها الناس، إنه محترم، ذكي، متدين، ميسورالحال.

— صدقني، أنا أريد ما هو أقلّ من ذلك بكثير.

— ما هي مواصفاتك يا زوجة أبي؟

— أريد رجلاً فقط، رجلاً بكل ما تحويه هذه الكلمة من معانٍ.

— إذن ستظلين طوال حياتك بلا زواجٍ، فلم يعد هناك رجال.

استمر بنا الحال كذلك وعلاقتنا تتراوح بين القوة والفتور حسب ضغط العمل على كلٍّ منا، حتى سألتني ذات مرة سؤالاً مباغتاً وهي تعلم أنّني سأصارحها، فقد كنت أعدها صديقة حميمة في غير شرّ، قالت لي:

— الفتيات في المكان حائرات يتساءلن في جنون: رغم أنك وسيم وذو خلق، ومثقف، إلا أننا لم نسمع أن لك علاقات أو قصص حب مثل غيرك من الشباب الآخرين.

قلت لها باسماً:

— أهذا كل ما يشغل بالهنّ؟

قالت لي وهي تغمز بيسراها في حركة فتنتني:

— أنت تعلم أن البضاعة في السوق قليلة، وأنت بضاعة جيدة.

— هل تعرفين قصة الثعلب والعنب؟

— لا أعرفها، عمَّ تدور هذه القصة؟

أسندت راحتي على حافة مكتبها وأنا أرسم بأصابعي القصة قائلاً:

— ندعوها أحيانا قصة العنب المرّ، وتحكي أن ثعلباً جائعاً مرّ بحديقة للعنب اللذيذ المعروف بحلاوته، وحاول جاهداً أن يقفز من خلف السور عسى أن يصل إلى العنب، فلم يستطع لارتفاع السور، فذهب مغضباً وهو ينشد:

— إنّ طعمه مرّ، والدليل على أنه مرّ أنه بالداخل وأنا بالخارج.

قالت لي وهي تضحك ملء شفتيها:

— قصر ذيلٍ.

أجبتها وأنا أغادرها غير باسم:

— قصر ذيل يا أذعر.

استوقفتني بصفير وهي تقول:

— انتظر، لماذا أنت قصير الذيل؟

— لأنني أنظر دائماً إلى الأعلى، ولا أري ما بين يديّ، ولأن العلا ليس له حدود فسأظل في شقاء طوال حياتي، كأنما صرت ملعوناً بأن تظل عيناي

متعلقتين بالنجوم طوال حياتي.

قالت لي وهي تمط شفتيها:

— إني لأشفق عليك، ولكن ماذا أقول لهنّ؟

— قولي لهنّ، إنني أفضل ميتة ربي على أن أقترن بهنّ.

ثم جرت الأيام حتى رأتْني بعد طول صبر وعزوف عن النساء وقد ارتبطت بفتاة دوني في كل شيء حتى صار ارتباطنا أشبه بارتباط الليل والنهار أو القمة بالسفح، فسألتني في قلقٍ ممزوج بالشفقة:

— لماذا فعلت هذا؟

— فعلت ماذا؟

— زواجك منها في حد ذاته انتحار، أمامك بستان النساء مليء بكل أنواع الفاكهة، فلمَ اخترت هذا الحصرم المرّ؟

— بل هو الليمون الحلو.

— وهل هناك ليمون حلو؟

— إنها قصة.

— لمَ حياتك وأجوبتك كلها قصصٌ؟

— لأن الحياة كذلك.

— إذن اروها لي.

— ذات يوم بعد أن مرّ الثعلب ببستان العنب الحلو، فلم يستطع أن ينال مه شيئاً ذهب مغضباً وهو يقول عنه: إنّه مرّ، ثم وجد في أثناء طريقه بعد ذلك بستاناً لليمون ذا سور منخفض، فاستطاع الثعلب المرور حتى وصل

إلى الليمون وأكله، ولكنه اكتشف أنه مرٌّ للغاية وحامض فأنشد يقول:

— إن طعمه حلو، والدليل أنه حلو، أنه بالداخل وأنا بالداخل.

صاحت في وجهي قائلة:

— إذن تراها مناسبة؛ لكونها ما استطاعت أن تصل اليه يداك.

— بالطبع

— هل يفكر كل الرجال مثلك؟

— للأسف، لا.

— لو فكروا مثلك لما أصبح هناك أيّ خلافات بين الرجال والنساء، ولرأى كلّ رجلٍ في رفيقته ملكة متوجة.

رددت عليها وأنا أغادرها لحين حديث آخر.

— لو حرموا مثلما حرمت لفكّروا مثلي.

تمت

يد في أغلال الخطيئة

أيها الطبيب، لا ترفق بي، اقطعني من رسغي، خلصني من آثامي وطهرني من ذنوبي التي اقترفتها، حررني من أسري وأطلق سراحي وامنحني حريتي، اقطعني وخلصني كما يخلص غصن الشجرة الأخضر من جذعها اليابس.

لقد جعلني الخالق يداً لإنسان لم يملك من الإنسانية غير الاسم وحسب، استغلني أسوأ استغلال وجعلني أرتكب أفعالاً يندي لها جبين الشرفاء، وأخجل من الإفصاح عنها، حاولت أن أخونه ولكن لم أستطع، حاولت أن أعصيه ولكن إرادته كانت فوق إرادتي، حاولت الهرب منه ولكن التصاقي به كان أبدياً، كم صليت بكل خلاياي وأنا أدعو الرحمن أن يشلّ حركتي حتى لا أخدم أغراضه الدنيئة مرة أخرى!

كنت يداً نقية، طاهرة، ناصعة البياض، وهبت لطفل مدلل أفسدته الظروف من حوله وساعدها أكثر طبيعته الشرسة التي ترغب في الاستحواذ على كل شيء، بدأ يضرب بي من حوله وشعرت بالزهو في أول الأمر وهو الذنب الذي ظللت أندم عليه بعد ذلك، ثم امتدت يده بعد ذلك إلى سلب ما لدى الآخرين ولم يجد مَن يردعه رغم علم البعض بذلك.

كانت والدته تراه وهو يستلب تفاحة من بائع الفاكهة على حين غفلة منه، فلم تحاول أن تنهره، وكان والده يراه عائداً من مدرسته وقد حمل الكثير من الأقلام، فلا يسأله: من أين؟ وكيف أتى بها؟!

وكبر هو وكبرتُ معه وزادت جرائمنا سويَّاً، صار شابَّاً يافعاً قويَّاً شرساً من النوع الذي لا تحب أن يلقيه القدر في طريقكَ، لم يسلم أحدٌ من أذاه حتى أبواه أنفسهما، فعندما ارتفعت يده بالضرب هوَتْ على وجه أمه، وعندما انسلت يده بالسرقة كانت من خزانة أبيه، فما زرعوه فيه حصدوه منه، ولكن شره وأذاه لم يقتصر عليه وعلى أهله فقط، فهو كالجواد الجامح الذي انطلق يدمر حقول الآخرين.

ترك مدرسته وأهمل واجباته واتخذ الرصيف عنواناً، والحانات سكناً، وللأسف كنت أطاوعه في كل شيء.

يوم أن مدّني لكي يلمس جيد تلك الفتاة الصغيرة الجميلة ذات العينين النجلاوين طاوعتُه، يوم مزق ملابسها؛ ليقضي على عذريتها طاوعته، يوم أن قدمها لأصحابه بعد أن فرغ منها طاوعته، ويوم أن قتلها خنقاً ليخفي ملامح جريمته التي بدأت تظهر على بطنها طاوعته.

أصبحت مغرورة، قوادة، مغتصبة، منتهكة للأعراض، أعبث في أجساد النساء وحيوب الرجال بلا رادعٍ، قاتلة، أرتكب أفعالاً يحمرّ لها جبين الدهر خجلاً، أفعالاً يعفّ القلم عن ذكرها، وتثير الضمير الإنساني بأن يوقفها.

ولكنه لم يتوقف وأنا معه، كرهت نفسي ومجت أذني من سماع حكاياته، يوم أن رفعت الكأس إلى شفتيه أول مرة كرهت نفسي، يوم أن سرق وقتل ذلك الشيخ العجوز الذي دافع بشدة عن معاشه الذي قبضه لتوّه كرهت نفسي، يوم أن مددت يدي لأسرق أموال النذور من المساجد والكنائس كرهت نفسي، يوم زوّرت في قسائم وتوكيلات؛ لأستولي على أموال الناس وأتلاعب بأحلام البسطاء كرهت نفسي.

تمنيت أن أُنتزع منه، تعلم أيها الطبيب أنّ نوم الظالم عبادة، لطالما آمنت

بهذا القول، كنت أنتظر نومه حتى يهدأ شرّه ويكف عن ارتكاب الذنوب والمعاصي ومجاهرة الله والناس بآثامه، وساعتها كنت أصلي وأسبّح وأدعو الله أن يخلصني منه، وكنت أشعر أنه سيأتي اليوم الذي سأشهد فيه أمام العرش على كل أفعاله، سيُنطقني الله كما سيُنطق لسانه وعينيه وبشرته وقدميه عليه وأنا....، أنا صاحبة النصيب الأكبر من كلّ ما فعله.

كنت أشعر براحة نفسية لكفي عن ارتكاب الذنوب أثناء نومه، وكنت أتمنى أن يطول نومه أبد الدهر أو لا يستيقظ أبداً.

ولكنه كان يستيقظ مرة أخرى ليعاود ارتكاب جرائمه مجدداً، وأحسست أنني أرغب في قتله، كان يتسلّل مرة على إحدى البنايات عندما انزلقت قدمه، لا أحسبها زلّتْ ولكن هي الأخرى كرهت سيره بها إلى المعصية، إلى الخطيئة وكنت أتمنى يوم أمسك بي حافة أفريز البناية أن أخذله أنا أيضاً ولكني لم أستطع، شيء ما خارج عن إرادتي منعني، انتظرت طويلاً أن يأتي يومٌ أُنتزع فيه منه، وأُصبح حرة حتى كان ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى الحجاز ليسرق الحجاج هناك.

كان يمنّي نفسه بغنى الدهر وانطلقت يده تعبث في الجيوب والحقائب، ولم تكتفِ فاستزدادت أكثر وأكثر حتى شعرت بنفسي على حين غرة في مواجهة الشرطة، حاول هو الهرب فانكفأ على وجهه، تعثرت قدمه، أظنها كانت أكثر مني إيماناً، حاول أن يمسك بالمسدس ليطلق النار على الشرطة، هنا جاء دوري وهتفت في نفسي: ياربّ، ساعدني.

أخذت أرتعش وأخطئ لكي يصيب الجدران والبنايات تاركاً رجال الشرطة الأبرياء، ونفدت رصاصاته لينظر لي في غضبٍ وحنقٍ وهو يلقي بالمسدس بعيداً، وأحس هو بالقيد يدخل في يديه، ولكنه كان بمثابة طوق النجاة لي؛ لأتحرر من أغلال الخطيئة، أحسّ هو أنه سجن وأحسستُ أنني قد تحررتُ، وكانت سعادتي أكبر حينما علمت أنهم سيطبّقون عليه الحدود كما أنزلها الله

بقطع يده كاملة.

شعرت بأنني سأتخلص منه أخيراً، لن أصبح ملكاً لأحدٍ، لن أكون أمَةً لأحد سوى خالقي، نعم لن أكون يداً لرجل صالح، ولكني على الأقل لن أرتكب ذنوباً.

هيا أيها الطبيب، حرّرني، فكّ أسري، اقطعني ولا تخف، فلن أتألّم، فاليوم يوم الخلاص، يوم الحرية، ومبضعك هو سيف النجاة، فاقطعني ولا تخف، فما أنا سوى يدٍ آثمة.

تمت

أبناء الأرض

لم يشعروا بالارتياح له حينما تقدم منهم، تراجعوا في توتّر، لم يفلح مظهره الأنيق ورائحته العطرة في أن تقنعهم أنه لا يريد بهم شرًّا، همّوا بالهروب منه، ولكن لسبب ما لم يفعلوا مباشرة حتى يسفر عن بغيته.

لاحظ هو توتّرهم فابتسم في هدوء وهو يتقدم متأمّلاً إياهم، كانوا ولدين وبنتاً واحدة، الولدان سنّهما ما بين العاشرة والحادية عشرة، والبنت بالكاد تناهز الثامنة، ثيابهم قذرة بالية وكأنها أسمال تخلّى عنها شحاذ، رائحتهم ليست جيدة على الإطلاق كأنهم لم يقربوا الماء منذ سنواتٍ، شعور منكوشة ووجوه كالحة من الشمس والأتربة.

يراقبهم منذ يومين، في حركتهم تحت ذلك الجسر في مدينة (القاهرة) يرى الكثير من المتشردين يروحون ويجيئون، ولكن هؤلاء مكانهم ثابتٌ فضلاً عن أنّهم الأصغر سنًّا.

ألقى عليهم تحية السلام، فلم يردوا عليه واكتفت الصبية بأن لاذتْ بالأولاد طلباً للحماية، لم يفهم سبب هذا الخوف المبهم، قال لهم:

— كيف حالكم؟

شعر بأحدهم يلتقط حجراً من الأرض في سرعةٍ ويضمّه في كفه قائلاً:

— ماذا تريد؟

تراجع للخلف مبهوتاً، وهو لم يفهم سبب تلك العدائية الغريبة، قبل أن يشير له بكلتا يديه قائلاً:

— أريدكم في موضوع بسيط، وسأعطيكم بعض المال والملابس.

ألقى عليه الصبي الحجر وهو يصرخ به:

— اذهب من هنا.

أعقب الصبي ضربته بأن أطلق ساقيه للريح وهو يهرب هو والطفلان الآخران بعيداً قبل أن يجمعا حجارة أكثر ويستعدا لمواجهة قاسية مع الشاب الأنيق.

كانوا يعلمون من هم أمثاله، شباب ورجال ونساء يأتون إلى هذا المكان بحجة مساعدة أطفال الشوارع هؤلاء، كانوا في الأول عشرة أطفال يعيشون تحت ذلك الجسر، أتتْ امرأة وأخذت ثلاثة منهم ولم يعد منهم سوى واحد، عاد مرتعباً؛ ليحكي لهم كيف شقوا أجساد زميليه واستخرجوا أعضاءهما في بيتٍ أنيقٍ في ضاحية قريبة من المكان وتمكن هو من الهرب بأعجوبة، وكان هذا هو الصبي ذو الحادية عشرة عاماً واسمه (يحيى)، وجاء رجل ليأخذ أربعة منهم بحجة إعطائهم طعاماً وثياباً واختفوا؛ لتعود الفتاة الصغيرة بعد شهرٍ هاربة هي الأخرى وقد فقدت عذريتها في سنٍّ مبكرة وتركت الصبيان والبنات الآخرين محتجزين في منزل سيئ السمعة تؤجر أجسادهم بالساعة لوحوشٍ من البشر لا تعرف عقلاً ولا تميز عيباً، كانت الفتاة جميلة حينما ينظفونها إعداداً للزبائن، ولكنها تفضل أن تظل متسخة هكذا على أن تتسخ بشيء آخر، كانت تُدعى (نادية).

أما الثالث ذو العاشرة فقد أتى رجل وقور وأخذه مع ثلاثة آخرين من الصبيان قبل أن يعود بعد ساعات قليلة وقد عاش تجربة مرعبة ما زال يستيقظ منها مبلّلاً نفسه كل ليلة، لقد ذبحوا صديقيه على باب مقبرة فرعونية طمعاً في

فتح باب المقبرة، وهرب هو قبل أن تناله السكين وكان اسمه (عزيز).

ثلاثة من أصل عشرة أطفال، شهدوا الويل طوال الوقت، وباتوا يكونون دائرة مغلقة كل الناس خارجها، يتساوى لديهم الأنيق والقذر، فقلوب الجميع سواء، هم بالنسبة للآخرين ليسوا سوى أجساد، دُمَى بشرية يستغلونهم لأجل المتعة تارة، ولأجل الألم تارة، ولأجل الثراء تارة، ولم يحاول أحدٌ قط أن يساعدهم حقيقة، هم يعرفون أن ذلك الشاب لا يختلف عن الآخرين، ولن ينخدعوا به.

ولكنهم كانوا مخطئين، نعَم، تراجع الشاب حينما أدرك أن معركة الحجارة لن تكون لصالحه ولكنه لم يستسلم، عاد من حيث جاء وهو يدبّر خطة جديدة للتقرب منهم.

كان اسمه (أسعد عبد الله)، فنان تشكيلي ومصور، ويعمل كذلك في جمعية خيرية لتنمية المجتمع، كل يوم منذ سنة يمرّ من أمام هذا الجسر ويفكّر كيف يفعل لهؤلاء الأطفال شيئاً إيجابياً، لم يكن يملك من حطام الدنيا المال الوفير ولا الشهرة الواسعة، ولكنه بالتأكيد كان يقدر على مساعدتهم.

حينما لاحظ عددهم يتناقص بشكلٍ غريبٍ قرر أن يتخلص من تردده وسلبيته وأن يتقرب منهم، كان في مخيلته اعتقاد بأنه بالتأكيد بين هؤلاء المشردين هناك مَن يمتلك موهبة فنية رائعة تستحق أن ينفض عنها الغبار وهو يريد أن يكشف هذا للعالم ويهب لهم حياة جديدة، بين عشرات الألوف من أطفال الشوارع الذين أطلق عليهم أبناء الأرض اصطلاحاً، هناك ألف فنان، وألف موسيقيّ، وألف رياضيّ ينتظر فرصة، فرصة فقط.

عاد بعد نصف ساعة وكان يحمل حقيبة بها طعام مختلف ألوانه مع عصائر وثياب جديدة، رأوه فتحفزوا كعادتهم، كانوا يفكرون في الهروب إلى تحت جسر جديد، ولكن كلها يسيطر عليها شباب غاية في الإجرام وسيمارسون عليهم

كل أنواع العنف، تسلحوا بالحجارة مجدداً، ابتسم (أسعد) في توتر هذه المرة وهو يضع حقيبة الطعام غير بعيدٍ منهم ثم ينصرف.

تركوه حتى انصرف ثم قاموا بفحص الحقيبة، أدركوا أنه يحاول خداعهم بالطعام، ربما وضع فيه مخدراً أو سُمّاً، كانوا يشعرون بالجوع، فكروا في أخذ الملابس، ولكنها لن تسدّ جوعهم، قرروا فيما بينهم أن يأكل واحد منهم الأول ثم في آخر النهار إن لم يحدث له شيء يأكل البقية، احتاروا فيمَن يفعل ذلك، اقترعوا فأتت القرعة على البنت، شعرت بالخوف فقرّر (يحيى) إعفاءها من الحرج، ومدّ يده يلتهم تفاحة في ضيقٍ قبل أن يستلذ بها.

في اليوم التالي عاد (أسعد) مرة أخرى بحقيبة مماثلة ووضعها وانصرف وكرر الأطفال فعلتهم بالإمساك بالحجارة، ولكنهم لم يقترعوا على الطعام بل أكلوه في هدوء، لاحظ (أسعد) أنهم لم يرتدوا الثياب الجديدة، بل تركوها مكانها، فأخذها معه عائداً.

في اليوم الثالث عاد معه حقيبة بها طعام مختلف وثياب مختلفة عن المرة السابقة وحاول أن يجعلها مميزة لهم، لا يزالون خائفين منه، فالحجارة لا تفارق أيديهم، ترى مَن الذي غرس الخوف في تلك القلوب الصغيرة؟، لم يحاول إثارة توترهم أكثر فقام بالانصراف مسرعاً، وقد سرّه أنهم على الأقل يأكلون الطعام.

طوال شهر كامل فعل هذا، لاحظ بعد مرور أسبوعين أنهم لم يعودوا يحملون الحجارة، وفي الأسبوع الثالث ندَّتْ من الفتاة ابتسامة حينما رأتْه قادماً، لذا أحضر لها دمية جميلة ووضعها بين الثياب في اليوم التالي.

في الأسبوع الرابع حدث تطور نوعيّ، لقد ارتدي الفتى الصغير (عزيز) الثياب وهذه دلالة أنه قد اطمان له، كان الثلاثة بالفعل قد اطمأنوا له، فرجل يمثل هذا الإصرار أكثر من شهر لن يريد بهم شراً، كان يكفيه أن يذهب مع

غيرهم أو يجبرهم عنوة، في آخر الشهر كانوا جميعاً قد ارتدوا الثياب الجديدة وتخلّوا عن حجارتهم واستبدولها بالابتسامة حين وصوله، في آخر مرة جرؤ على الإقتراب أكثر ملقياً التحية عليهم.

— السلام عليكم.

أجابه (يحيى) هذه المرة.

— وعليكم السلام.

— هل أعجبكم الطعام والثياب؟

أسرعت (نادية) تقول في بقايا براءة ظلّتْ بها رغم ما حدث:

— نعم، جميلٌ.

وعقب (عزيز) قائلاً:

— نشكرك.

— العفو، كل هذا لكم، هل تقبلونني صديقاً؟

تلفتوا إلى بعضهم في حيرة قبل أن يجيبه (يحيى) قائلاً:

— نقبل، ولكن ما الذي تريده من صداقتنا؟

مدّ يده له مصافحاً وهو يقول:

— في البداية أنا اسمي (أسعد عبد الله)، وأنا رسام.

نظروا لبعضهم وقد فطنوا أنه ربما يريد أن يرسمهم كما يفعل بعض طلبة الفنون الجميلة الذين يأتون لالتقاط صور لهم للمشاركة بها في معارض فنية،

يطلب منهم الشاب أن يبتسموا ثم يعطيهم جنيهاً وينشر الصورة في معرض وتحتها تعليق، ما أقبح الفقر!، وما أجمل ابتسامة الفقراء!، ثمن كاميرته يتعدى مائة ألف يكفي لجعل هذه الابتسامة أبدية.

تأتي إحداهن وتطلب من (عزيز) و(نادية) أن يحتضنا بعضهما ثم تنشرها على صفحتها الرسمية قائلة:

« الحب بين هؤلاء لا يعرف حواجز».

هؤلاء يتاجرون بصورهم فقط وهي أهون أنواع التجارة، وربما (أسعد) هذا مثلهم ولكن لا بأس، فليساعدوه وليرحل في حال سبيله دون شرّ، أفصح (يحيى) عمَّا يجول في خاطرهم فصافح يده الممدوة قائلاً:

— كم ستدفع لنا؟

— مقابل ماذا؟

— مقابل أن ترسمنا أو تصورنا أو تفعل ما تريد فعله.

— لا أريد أن أرسمكم أو أصوركم، بالعكس أريد أن أعلمكم الرسم.

تحيّروا، كيف يأتي هذا الرجل ليعطيهم ولا يأخذ منهم؟!، فقال له (عزيز) مندهشاً:

— وما الذي سنستفيده؟

— ربما تتعلّم الرسم وتصبح مثلي وتقدر على إحضار طعامكَ وثيابكَ بنفسكَ.

بدَتْ فكرته منطقية، ولن تكلفهم شيئاً، فقال له (يحيى):

— حسناً، نوافق.

— إذن تعالوا معي إلى مرسمي؛ لنتعلم هناك.

هنا نظرت (نادية) في خوفٍ إلى (يحيى) الذي أدرك ما بخاطرها، فقال بسرعة لـ (أسعد):

— لا، منزلك لا، علّمنا هنا، نستطيع أن نفعلها هنا.

أدرك (أسعد) أنه لم يكتسب ثقتهم كاملة فتنهّد في ضيق مستسلماً وهو يقول:

— حسناً، سأذهب لأحضر أدوات لكم وأعود.

حينما عاد بعد ساعة كان يحمل معه أقلاماً كثيرة وأوراقاً بيضاء كبيرة، وكذلك حمل معه ثلاثة مساند ليضعوا عليها الأوراق؛ لأنه لم يكن هناك مكان يتكئون عليه وهم يرسمون، بدأ (أسعد) يوزع عليهم الأدوات وهو يطلب منهم ببساطة أن يرسموا أيّ شيء يخطر على بالهم:

بعد دقائق عادوا إليه برسومات مختلفة ما بين صور سيارات وصور شجر، كانت صور (عزيز) قاسية، لقد رسم طفلاً رأسه مقطوعٌ وملقى إلى جانبه.

كانت رسوماتهم سيئة، ربما بالضرورة ليسوا بفنانين، العدد ثلاثة، قليلٌ كعينة, ربما لو كانوا مائة لأخرج منهم فناناً واحداً، ولكنه لم ييأس، لذا طلب منهم أن يرسموا مجدداً أشياء أخرى، رسموا مرة أخرى، هذه المرة الرسومات كانت أفضل نوعاً ما، رسومات (عزيز) رغم غرابتها وقسوتها بها مهارة لا تخفى عليه.

طلب منهم أن يرسموا المكان من حوله، فرسموه بدقة مدهشة، طلب منهم أن يرسموه فرسموه كذلك، ولكن لاحظ أن (نادية) رسَمَتْه بشكلٍ مضحكٍ قليلاً، تبادل معهم مزحات ضحكوا لها حول رسومهم.

قرر الانصراف والحضور في اليوم التالي، كان قد قرر أن يطوّرهم شيئاً فشيئاً، ولذا أحضر أدوات وأوراقاً أكثر، وحينما عاد لهم في اليوم التالي أخذ يشرح لهم نظرية الألوان وكيفية الإمساك بالقلم والتعامل مع الأوراق، جعلهم يقلدون رسوماً جاهزة، وكذلك جعلهم يرسمون من وحي خيالهم.

وتكررت زياراته وبدأ يلاحظ تحسن رسمهم مرة تلو الأخرى، استبعد (يحيي) من دائرة اهتمامه فلم يكن يتقدم كثيراً، ولكن (عزيز) به الكثير من الموهبة، لاحظ أن رسومات (عزيز) أصبحت أكثر سعادة، لم يعد يرسم جثثاً ودماء ومشاهد مرعبة.

همست له (نادية) في أذنه خجلة:

— (عزيز) لم يعد يبلّل نفسه أثناء النوم.

لم يفهم معنى ما قالته، ولكنه شعر أن هذا شيء جيد حدث مؤخراً، أحس بالثقة فقال لهم:

— المكان هنا غير مناسب، ألا تقبلون الذهاب معي إلى مرسمي؟

تبادلوا النظرات مرة أخرى قبل أن تقول (نادية) بهدوءٍ:

— نقبل.

كان قبولها وكأنه قبول بالنيابة عن الآخرين، سعد لذلك للغاية وأخذهم إلى مرسمه المتواضع، لم تكن شقته كبيرة، ولكنها كانت كافية ليقتسمها ما بين مسكنٍ ومرسمٍ، انبهروا بما رأوه داخل مرسمه من رسومات وصور وتحف فنية كأنهم (أليس) في رحلتها إلى بلاد العجائب.

هناك أخذ يعلمهم بسرعة أكبر، ومع الوقت قرر استثناء (نادية) كذلك

من اهتمامه، فقد كانت موهبتها محدودة، لاحظ أنها تحب الغناء كثيراً، وصوتها جميل، ربما يعرّفها بأحد أصدقائه الملحنين؛ ليكشف إن كان لديها موهبة أم لا؟

لم يبقَ لديه سوى (عزيز) كان يتقدم بسرعة فائقة ورسوماته تشي بأنها رسومات شاب بالغ، هذه موهبة ثمينة بلا شك.

سألهم مرة أن يرسموا أكثر شخص يعتبرونه عظيماً في حياتهم، لخيبة أمله لم يرسمه أحدهم، رسمتْ (نادية) صورة لشخص مجهول وفشلت أن تشرح لمَ هو عظيم؟، بينما رسم (يحيى) صورة لشخص آخر وقال: إنه (إبراهيم النونو)، وهو فتى كان يساعدهم في الهرب من مداهمات الشرطة على المكان، ورسم (عزيز) صورة لوجه بلا عينين أو أذن أو أنف، وقال: هذا هو أبي، ولكني لا أعرف كيف يبدو؟

سألهم أن يرسموا أيّ مشهد رأوه في (مصر)، لدهشته لم يرسموا شيئاً قبل أن يتبين أنهم لا يعرفون ما هي (مصر)؟، شرح لهم أنهم يعيشون في دولة اسمها (مصر)، بدَتْ عليهم الدهشة قبل أن يرسموا مشاهد مختلفة من هنا وهناك.

سأله (عزيز) قائلاً:

— (مصر) هذه هل هي كبيرة؟

— جداً.

— وبها ناس كثيرون؟

— ياه، ملايين من البشر.

— وكيف يعيشون؟

— يعملون ويدرسون ويسافرون وأشياء كثيرة.

— ومن أين يأتون المال؟

— هناك مَن يستلمه من عمله مثلي، وهناك مَن تعطيه (مصر) مرتباً.

— ولماذا تعطيه مرتباً بلا عملٍ؟

— إعانة أو معاش.

— إذن، لماذا لا تعطيني مصر إعانة مثلهم؟

— بصراحة (مصر) لا تعرف أنك موجود، أنت بلا شهادة ميلاد، وبالتالي غير محسوب من المصريين.

— وكيف أحصل على شهادة ميلاد؟، هل تستطيع أن تعطيني واحدة؟

صمت (أسعد) ولم يحر جواباً، كان يودّ ذلك ولكنه يعرف أن إجراءات استخراج ذلك عقيمة ومملة، بجانب أن شهادة الميلاد الورقية لن تنفع هؤلاء الصغار، ما الذي فعلَته ملايين شهادات الميلاد لأصحابها؟، قال له:

— ما أعلمك إياه الآن هو شهادة ميلادك.

كان يتمنى هذا، ولكنه في قرارة نفسه كان يخشى من فشل تجربته، كما فشل كل شيء جميل في هذا البلد، ولكنه لم يدع روح القنوط تتسرب إلى فؤاده وهو يستمر في تعليمهم، جاءه أحد الملحنين على إثر دعوته واستمع إلى صوت (نادية)، لم يبد مهتماً كثيراً، ولكنه وعده بأن يتذكرها إن سنحت فرصة.

مع الوقت سمح للأطفال أن يناموا داخل منزله حينما شعروا بالتعب، ولكنه لم يدعهم يبيتون لديه، كان يخشى أن يتعودوا على الراحة الآن، فلا يستطيعون التأقلم مع حياة الشارع مرة أخرى، شعر بعدم إنسانيته في ذلك، ولكنه لم يكن بالشجاعة لتحملهم بمسؤولية كاملة في حياته، هو يحاول أن يحصل لهم

على حياة أفضل خاصة بهم.

طلب من (عزيز) أ ن يرسم له الوطن، سأله (عزيز) متعجباً:

— الوطن هو (مصر)؟

— قل لي: ارسم (مصر) مباشرة.

— لا، (مصر) غير الوطن، ولكنِ الاثنان شيء واحد.

— لم أفهمك، حيرتني.

— الوطن مكان نحبّه ونرتاح فيه ويسعدنا.

— إذن سأرسم تحت الجسر.

— لا، ارسم الأهرامات مثلاً ونهر النيل.

— لا أعرف ما هي الأهرامات؟، وأنا لا أرتاح للنيل، غرق أحد أصدقائي هناك.

— حسناً، ارسم الوطن كما يحلو لك؛ لأنني سأقيم لك معرضاً قريباً ويجب أن تكون هذه اللوحة هي اللوحة الأساسية، ولو نجحت فستودّع الفقر إلى الأبد.

— حسناً، تريد مكاناً أرتاح فيه ويسعدني ويسمَّى الوطن؟

— نعَم، غير الجسر بالطبع.

— حسناً، سأفعل.

ولمدة أيام انزوى (عزيز) مع نفسه وهو يحاول أن يرسم الوطن ويفشل، يرسم أشياء كثيرة ثم يمزقها ويبدأ من جديد، شعر (أسعد) بمعاناة الصبي، وأحس بأنه قد اختار له موضوعاً صعباً، كيف لصبي مشرّد ذي عشر سنوات أن يعلم ما

الوطن؟، تذكر كيف كان يجبرونه على رسم ذكرى حرب أكتوبر في المدرسة وهو لم يعايشْها فكان يكتفي مثل غيره برسم الصورة الساذجة التقليدية عن دبابة وجندي يرفع سلاحه وعلم مصر يرفرف مع علم إسرائيل على الأرض.

هو الآن يحصر موهبة (عزيز) في ذلك أيضاً.

قال له وهو يحتضنه:

— لا بأس يا (عزيز)، لو كان الموضوع صعباً، فاتركه.

دمعت عينا (عزيز) وهو يقول:

— لا أعرف كيف أرسم الوطن، ولكن سأحاول، فقط دعني وحدي ولن أريكَ الصورة إلا في المعرض.

شعر (أسعد) أن هذه مخاطرة، كل رسومات (عزيز) العشرين الأخرى مميزة، وبها موهبة وأيّ رسمة خاطئة ستدمر المعرض كله مثل الملح الزائد على وجبة فاخرة، ولكنه ترك الفتى لموهبته وإحساسه يقودانه كيفما شاءوا.

بعد أيام انتهى (عزيز) من لوحته التي رفض أن يراها (أسعد) رغم إصرار ذلك الأخير الذي اكتفى بأن حجز قاعة للعرض ليومٍ واحدٍ ودعا مَن استطاع دعوته من الصحفيين الذين شك أنّ أكثرهم لن يلبي دعوته.

في يوم العرض كانت كل اللوحات معلقة في أماكن بارزة، حضر عدد قليل من المهتمين بالفن مع صحفي واحد فقط، كانت كل اللوحات مكشوفة ولكن اللوحة الرئيسية التي رسمها عزيز أصرّ أن يغطيها للنهاية حتى يكشفها بنفسه للآخرين.

كان (نادية) و(يحيى) هناك كذلك، وقد فرحا بهذا الجوّ الغريب عنهما، كانا يعلمان أن نجاح المعرض فرصة لهم جميعاً بنجاح التجربة، وأن فشله يعني

عودتهم لتحت الجسر مرة أخرى.

توقف الصحفي أمام اللوحة المغطاة وهو يسأل (عزيز):

— لوحاتك جيدة، لا شك في أن هذه أحلاها.

— شكراً، أظنّ، عمّ (أسعد) أخبرني أن اللوحة الأساسية يجب أن تكون أفضلهم.

— وماذا رسمتَ فيها؟

— الوطن.

رفع الرجل حاجبيه في انبهار وهو يقول:

— الوطن مرة واحدة، لا بدّ أنها لوحة صعبة وعظيمة للغاية، لأجهز كاميرتي لها.

جهز كاميرته وجمع الحضور يلتفّ لمشاهدة اللوحة، شعر (أسعد) بالقلق، ولكن (عزيز) منحه ابتسامةً خجولاً أزالتْ قلقه، اقتربت (نادية) و(عزيز) متشوّقَيْن لمعرفة كيف يبدو شكل اللوحة؟

رفع (عزيز) الستار الأبيض عن اللوحة وهو يقدمها لهم قائلاً:

— الوطن كما أعرفه.

نظر الجميع مبهوتين للوحة قبل أن تلتمع كاميرا التصوير في سرعة تصور كل شيء.

كانت اللوحة لرحم أمٍّ به جنينٌ صغيرٌ وقد لون الجنين باللون الأبيض والرحم باللون الأحمر والأمّ باللون الأسود رمزاً للون علم البلاد.

ومن هنا أخذ (عزيز) شهادة ميلاده الحقيقية.

حدث يوماً ما

حدث يوماً ما أن كانت الحرية تسير في الشارع بصحبة ابن أخيها الحب عندما صادفتْ مظاهرة كبيرة فيها جمعٌ غفيرٌ من الناس يهتفون باسم الخبز، تعجّب الحب وسأل عمته قائلاً:

— من هذا العظيم الذي يهتفون باسمه يا عمتي؟

— إنه الخبز يا حبيبي.

— أهو عظيمٌ إلى الحد الذي يجعلهم يهتفون له؟

— في هذه الأيام إنه عظيم يا حبيبي.

— ماذا فعل للناس من معجزات كي يهتفوا له؟

هنا اقترب منهم الخبز وهو يجلس علي منكبيه ممسكاً بيد الحب قائلاً:

— سأقول لك يا بنيّ ماذا فعلت للناس، بدوني لا يستطيع الناس الحياة، يموتون، يشعرون بذلك الألم في بيت المعدة المسمَّى بالجوع، بدوني تضيق الحياة، وتشتعل الخلافات ويدبّ الشجار في البيوت وتنهار حياة العائلات، بسببي تقوم الثورات وتندلع الحروب.

هتف الحب منبهرا:

— أهكذا؟، إذن هو أعظم منك يا عمتي؟

صاحت فيه الحرية بصوت يملؤه الغضب:

— الخبز لا يمكن أن يكون أعظم من الحرية.

عقد الخبز ذراعيه حول صدره وهو يقول للحرية:

— لا بد أنك واهمة يا سيدتي الجميلة، عبر كل العصور كان الخبز دوماً أعظم من الحرية:

قالت له مغتاظة:

— ذكّرني متى حدث هذا؟

— ألا تعلمين لمَ تقوم الثورات عبر العصور؟، ألم يكن ذلك بسبب الخبز؟، ألم تقم الثورة الفرنسية بسبب الخبز حينما هتفت الملكة الفرنسية ماري انطوانيت بالجموع الجائعة «إذا لم تجدوا خبزاً فكلوا البريوش»، هكذا تقوم أي ثورة حينما يشتد الجوع ويستوطن في البطون ويذهب بالعقول، حينها تقوم الثورة.

ردت عليه الحرية قائلة:

— أغلب الظن أن معلوماتك التاريخية خاطئة يا عزيزي الخبز، الثورة الفرنسية قامت لأجل تحرير الشعب من الاضطهاد، وأظنك تعي جيداً أن الثورة قامت ترفع شعارات العدالة والحرية والمساواة، ولم تذكر الخبز أبداً.

— هذا؛ لأنها كانت تريد أن تتشدق بمثاليات كاذبة.

— بل لأنها الثورة الحق، الحرية هي سبب أيّ ثورة.

— ولكن الإنسان لا يستطيع الحياة بدون خبز.

— وكذلك لا يستطيع العيش بدون حرية.

— هراء يا عزيزتي، احضري أيّ إنسان وجوّعيه أياماً، سوف يموت، ولكن احرميه من حرّيته سنين طويلة لن يموت.

— ربما تقيس الأمر بالموت الجسدي ولكن كَم من أحياء ماتوا نفسياً وروحياً في ظل القهر وانعدام الحريات.

ردّ عليها الخبز متهكماً:

— أتذكرين أنه في الدول التي تحرّرت من رقبة القهر والتسلط مثلما تقولين تعرّضوا لفيض من الأزمات كان أشدها انعدام الخبز حتى خرجوا في مظاهرات تطالب الخبز مقابل أن تأخذ منهم الحكومة الحرية مرة أخرى؟

— هذه حالة استثنائية.

— ولكنها القاعدة الآن، إنَّ مَن لا يملك قوته لا يملك حريته، ألا تتحكم الدول في بعضها البعض عن طريق امتلاكها للخبز؟، ألا تدب الحروب والمنازعات في العالم بسبب الخبز وانعدام الأقوات؟

— هيهات أن يكون ما تقوله صحيحاً، كم من دولة صغيرة وفقيرة تعتمد على أخذ خبزها من دولة أخرى ولكنها حافظت على حقها في الحرية!

— وماذا كانت النتيجة؟، تعرضوا للاضطهاد وقطع الخبز عنهم حتى اضطر الكثيرون للخضوع في النهاية.

استدركت الحرية قائلة:

— الكثير وليس الجميع.

— أتحاول أن تقنعني أنك أعظم تأثيراً؟، إذن لنستوقف أحد المارة في الطريق ونسأله.

انتظر الثلاثة برهة قبل أن يمر أحد المارة تبدو عليه مخايل الثراء، يركب سيارة فارهة فأوقفوه قائلين له:

— هل يسمح لنا السيد الموقر بسؤال؟

— بالطبع، ولكن بسرعة؛ لأني على عجلة من أمري.

— مَن هو الأعظم بنظرك الخبز أم الحرية؟

أجاب الرجل ودون أدنى تردّد:

— الحرية بالطبع.

سأله الخبز حانقاً:

— لمَ تقول هذا؟

أجابه الرجل:

— لأنني إن فقدت حريتي ولو ظاهرياً، فلن أستطيع أن أعمل لآتي بالخبز، ولن أستمتع بطعمه إذا أحضروه لي على طبق من ذهب، فالسجين لا يشعر بمتعة الخبز وهو في سجنه، إنّني على استعداد لأن أقتات برغيف خبز واحد في اليوم على أن تعطيني حريتي في كل شيء في السفر والحديث والنقد والفكر والعقيدة والتجمهر وكل تلك الحريات.

قال الخبز وهو يحكّ رأسه:

— لا أظن أن هذا الرجل مناسب لسؤالنا، فهو مرفّه، ثريّ، نريد بطناً عرفَ الجوع من قبل حتى يكون لديه فكرة عمَّا نتكلم عنه.

انتظروا قليلاً حتى ظهر رجلٌ له مظهر سمين، مكتنز، يبدو موظفاً حكومياً بأحد الدواووين، له شارب قصير، أصلع الرأس إلا قليلاً عند جانبيه، يمسك تحت إبطه بجريدة وتحت الإبط الآخر ثمرة من البطيخ.

استوقفوه على الفور وسالته الحرية:

— سيدي، هل تسمح لي بسؤال؟، مَن هو الأعظم بنظرك الخبز أم الحرية؟

ردّ الرجل بثقة:

— الخبز طبعاً.

سألته الحرية واجمة وهي تنظر إلى الخبز المنتشي بالإجابة:

— لماذا يا سيدي؟، ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

رد عليها الرجل معقباً:

— نعَم، ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، يحتاج إلى الجبن والخضار واللحوم والفاكهة، هكذا يحيا الانسان، ولكن صدقيني يا سيدتي، الخبز أهم من حريتي، ماذا يعنيني إذا سمحت لفمي بالكلام بحرية طوال الوقت ولم تطعميه بقليلٍ من الخبز يقتات به؟، ماذا يعنيني إن سمحت لي باعتناق ديانة أو عقيدة ما بحرية والجوع في حد ذاته كافر سيجعلني أكفر بكلّ ما أدين به وأعتقد فيه.

— ولكن الحرية هي ضمان لاستمرار الخبز.

— ماذا تعنين؟

— أعني لو أن أحداً سرق قوت يومك، الخبز الذي تتحدث عنه، وليس لديك حرية الكلام التي تسمح لك بانتقاده، فكيف تضمن وصول خبزك إليك؟، ألم تسمع المثل الذي يقول: «جوّع كلبك يتبعك».

رد الرجل في صوتٍ حائرٍ:

— أظن أنه في النهاية سيُسمح لي بالقليل من الخبز؛ لأنه لو تركني جائعاً سأتكلم ولن يستطيع ساعتها أن يحرمني الاثنين الخبز والحرية وهو لديه المثل الآخر « جوع كلبك يأكلك».

هزت الحرية رأسها غير مصدقة قبل أن تقول:

— هذا بطن تعوّد على الذل والخوف، تخاف من غياب القوت، لابد أنّ له أولاداً وأسرة، ولا بد أن وظيفته قد علّمته الخنوع وعدم الاعتراض، هو من

النوع الذي يعمل لبطنه وليس لفكره، لنستمع إلى شخص آخر أخيراً؛ ليكون هو الفيصل بيننا.

انتظر الجميع حتى رأوا شاباً يمسك بيد فتاة ليعبر بها الطريقة فاستوقفوهما وسأله الخبز:

— قل لي أيها الشاب مَن الأعظم بنظرك الخبز أم الحرية؟

نظر الشاب إلى الفتاة وهو يقبض بيده على كفها قائلاً:

— الحب أعظم من الجميع.

صعق الخبز وهو يقول:

— ماذا؟ لا بد أنك واهم، ولم تطحنك الحياة بعد، الحب هراء يا فتى.

هنا أمسك الحب الصغير بتلابيبه وهو يقول:

— لماذا أيها الخبز؟، أعجيبٌ أن يكون هناك مَن يقدرني ويجعلني أعظم منك ومن عمتي الحرية؟

— اهدأ أيها الخبز، ولكن في زماننا هذا حينما يخلو البيت من الخبز يغادره الحب على الفور، وكيف يحب الإنسان بمعدة خاوية؟!، لابد من الحب وأشياء أخرى، كيف يحب الإنسان وهو مكبّل الإرادة مسلوب الكلمة؟، في غير وجودي أو وجود عمتك لا يستطيع المرء أن يحب، وجودك مرهونٌ بنا، ولكن لننتظر شخصاً أخيراً علّه يفصل بيننا جميعاً، هناك الآن نقطة لكل واحد منا، نريد مَن يفصل بيننا.

انتظر الجميع حتى ظهر شيخٌ وقورٌ يتكأ على عصا يعبر بها الشارع فاستوقفوه قائلين:

— أيها الرجل الطيب، قل لنا مَن أعظم الخبز أم الحرية أم الحب؟

أشار الرجل العجوز بعصاه قائلاً:

— كأنكم تخيرونني بين الموت جوعاً، أو أن أصبح عبداً، أو أن أفقد إحساسي بالحياة.

قالت له الحرية متبسمة:

— لا، الأمر بسيط، فقط اختر من بيننا، أنا أم الخبز أم الحب؟

— ولمَ عليّ الاختيار؟، ألا أستطيع الاحتفاظ بكم أنتم الثلاثة؟

— لا، يجب أن تختار واحداً فقط.

— إذن سأختار الموت.

— هذا ليس من ضمن الاختيارات يا سيدي.

هز الرجل راسه موافقاً:

— بالطبع هو أنسب الاختيارات، كيف تطالبونني أن أعيش بالحب وحده أو بالخبز وحده أو بالحرية وحدها؟!، المرء لا يستطيع العيش بدون الثلاثة، ولو عاش باثنين فقط صارت حياته ناقصة، ولو عاش بواحد فقط كان الموت أهون له.

سألته الحرية:

— لهذه الدرجة يا سيدي!

— بالطبع يا بنيّتي الحرية.

هتف به الخبز قائلاً:

— ولكن أنا الخبز الوحيد الذي أقاموا له بيتاً وهو المخبز، حيث تجدني على الدوام، الوحيد الذي له ثمن، والوحيد الذي يمكن الحصول عليه من الجميع.

قال له الرجل الوقور في هدوء:

— وهذا يجعلك أدناهما منزلة، فالحب والحرية ليست لهما بيوت ولا ثمن، ولكن صدقتَ في قولك: إنه يمكن الحصول عليك من الجميع، أما الحب والحرية فمشروطان، هما لا يتوقفان على إرادتك فقط بل على إرادة من يمنحونك هذا الحب وتلك الحرية.

قالت الحرية وقد بدا لها أنها المنتصرة:

— إذن فهو أنا يا سيدي، أنا العليا منزلة.

— أخطأت يا سيدتي، الحرية مشروطة كما قلت، وليست كلها خيراً، فحرية القول قد تؤدي إلى الإشاعات والكذب والافتراء، وحرية الفكرة قد تؤدي إلى الدسيسة، وحرية العقيدة قد تؤدي إلى الإلحاد، وحرية النقد قد تؤدي إلى الفوضى، الحرية قد تقتل، لو أتحتِ لطفلك الكثير من الحرية فقد يقتل نفسه، ولو أتحتِ للشاب الكثير من الحرية فربّما انحرف.

ضحك الحب وهو يضرب الأرض بقدميه في جزل:

— إذن هو أنا، أنا الأعلى منزلة.

هتف به الوقور وهو يربت على كتفه قائلاً:

— ومن الحب ما قتل أيضا يا بنيّ، حب الفضول قتل القطة، وحب الدبة لصاحبها دفعها إلى قتله، وكم من قصص حبّ كان لها شهداء!

حدق الجميع فيه مصعوقين قبل أن يسألوه:

— إذن ما النتيجة؟، أنت لم تجب علينا، لم تختر من هو الأعظم؟

هز الرجل العجوز رأسه وهو يكمل مسيره قائلاً:

— ولمَ عليّ الاختيار؟!

تمت

المغترب

مرت عشر سنوات منذ أن غادرت (مصر) للمرة الأولى، عشر سنوات مرت عليَّ كالحلم، يوم خرجت منها أول مرة كنت أنتوي أن أبقى بالخارج سنتين أو ثلاثاً لا أكثر أجمع فيها المال اللازم لزواجي ثم أعود، ولكني مثل الذي قرر قيلولة ساعة واحدة فنام نوم أهل الكهف ثلاثمائة عام.

عشر سنوات أخذت مني أكثر مما أخذتُ منها، والدولة الواحدة التي كنت أنتوي السفر لها صارت دولاً عديدة بين شرقية وغربية، هناك دولٌ فتحت لي ذراعيها، وأخرى لفظتني من على وجهها، هناك دول ثالثة سلبتني شبابي وأعطتني مكانه حفنة من الأوراق النقدية في مثل صفقات الشياطين.

وهأنذا أعود بعد عشر سنوات بأربع حقائب سفر وزوجة أسيوية وطفل جمع بين أسوإ خصال أمه وأبيه وكأنما يعاندني كذلك، ورث نحافتها ودمامة وجهي، ورث لكنتها الغريبة وضعفي أمام الكسل، من قال إن زواج الأجناس المختلفة دائماً ينتج الأفضل؟

ولكني ها أنذا قد عدت إلى حضن وطني، وقريباً إلى حضن أمي التي تركتها أول مرة باكية على وعد أن أمسح دمعها سريعاً، كنت أنزل في إجازات قصيرة متقطعة ما بين عامين وعام، ولكني لا أمكث معها طويلاً حتى حفر الدمع أخدوداً عميقاً تحت جفنيها من كثرة بكائها لفراقي، كذب من قال إن المال في الغربة وطن، فرغم ما جمعته من مال لم أحس أن الوطن هناك أبداً.

الوطن في رائحة الخبز الساخن الذي تعده أمي في الفرن، وفي طعم البامية الخضراء التي تقدمها لي مع الليمون والفلفل الحار، الوطن هو صوت القرآن قبل صلاة الفجر، الوطن هو ضحكات أبناء أختك وهم يقولون لك «نحبك يا خال».

كانت زوجتي غير متحمسة كثيراً للزيارة، هي الأخرى لها وطن تركته، وقابلتني في دولة (الكويت) وكأننا اثنان ضائعان التقيا في أرض غريبة فضما خوفهما وجوعهما إلى بعضمها؛ ليأنسا، ولكنها لم تجد نفسها في (الكويت) ولا في (مصر).

تركت روحها يوم سافرت من بيت أهلها في (ماليزيا) ولم تفلح مياه النيل ولا سمرة شمس الوادي في جعلها تشعر أن هناك وطناً بديلاً، فرصة الاستقرار بها هنا أو هناك صعبة.

ولكني فعلت هذا لأجل (آدم) ابني الصغير الذي لم يتجاوز عامه السادس بعد، كنت أريده أن ينشأ كما نشأت، ويمر بما مررت به وأن أجنّبه ما أكرهه.

حتى الآن لغته العربية ركيكة للغاية ولكني لا أستطيع أن ألومه، أمه تحدثه بلغتها الأم معظم الوقت وحتى في وجودي لا يسمع مني سوى الإنجليزية الخالصة حتى ثقلت اللغة العربية على لسانه، فلم يعِ منها سوى سورة الفاتحة وبضع كلمات هنا وهناك لا تكفي لإنشاء محادثة.

معرفته عن دينه وعن وطنيه الأم سواء (مصر) أو (ماليزيا) قشور، بدا مثل الورقة الطافية على سطح الماء ليس لها جذور، ولهذا قررت أن آتي به لبلادي حيث أزرعه في أرض طيبة؛ ليلقي بجذوره وينِشأ قوياً.

رأيت أخي ينتظرني في المطار، عانقني بحرارة لم تطفئها السنون، صافح زوجتي في سعادة قبل أن يداعب رأس ابني الصغير، منذ متى لم يروني؟، أربعة أعوام متتالية، هذه كانت أكثر فترة غبت بها على الإطلاق، ترى كيف صار شكل قريتي الآن، كنت ألمح في كل زيارة مطرقة التحديث تنهال على كل شيء بالقرية بلا هوادة، وإن ظلت الحداثة لم تطأها لحسن الحظ.

كانت المسافة بين (القاهرة) وقريتي نحو ثلاث ساعات ونصف، قضيتها أنا وأخي نتبادل أحاديث كثيرة عن أحوال البلاد، واكتفت زوجتي بتصفح صور على هاتفها المحمول دون أن تشاركنا الحديث، تبدو مثل حقيبة سفر خامسة وهي تأتي معي دون إرادتها فلا فعلاً تصدر، ولا قولاً تعطي.

انشغل (آدم) في رؤية الطريق الذي ازدان بالحقول الخضراء، كان يفتقد هذه المناظر في (الكويت) التي طغت عليها غابات الأسمنت واللون الأصفر على ما عداه.

ابتسمت في قرارة نفسي وأنا أرى نظرة الفضول والدهشة على وجهه، هذا ما أريد أن أراه، واجبي نحوه أن أنتزعه من بين أنياب المدنية القاسية إلى الاتصال بالطبيعة التي خلقها الله كما هي.

كانت أمي تقول دوماً إن أبناء المدينة مساكين، كيف يحيون في تلك المساكن الضيقة؟، لا يخرجون كثيراً ولا يقيمون علاقات ودٍّ مع الجيران، كانت كلما رأت طفلاً منطوياً أو محدود الذكاء تطلق عليه تربية شقق سكنية.

في داخلي أرى أنّ في جزء من حديثها كثيراً من الدقة، طفل القرية أذكى من طفل المدينة حتى وإن بدا للآخرين العكس، رغم عدم توافر إمكانيات في محيطه فلا توجد مدارس خاصة ولا معامل حاسوب ولا ملاهي للأطفال إلا أن ذكاءه ينبع من استكشافه للأشياء، هو ابن للأرض يرى الحشرات ويلمس الحيوانات ويشتم النبات عن قرب بدلاً من دراسة ذلك من خلال كتاب مصور أو داخل فصل دراسي.

بدأت بيوت قريبتنا تظهر من بعيد، صدمني التغيير السريع الذي هالها، اختفت الطرقات الترابية وظهر مكانها الأسفلت الأسود، كم أفتقد رائحة التراب بعد رش الماء عليه وقت الظهيرة، اختفت الحقول وبدا مكانها بيوت جديدة خلت من أي ذوق هندسي أو حس جمال، زحفت أطباق استقبال

البث التلفزيوني العالمي لتحتلّ كل بيت تقريباً، مقاهي الإنترنت وألعاب الفيديو أصبح لها أكثر من ركن، التحديث في كل صوره يغزو المكان.

لم أكن أريد لابني أن ينشأ وسط هذا وإلا لاستقررت به بالكويت أو بماليزيا أو حتى بالقاهرة ولكني أتيت به هنا ليتعلم أن يعيش الحياة بلا تعقيدات، هذه بقايا طبيعة على وشك الاندثار.

رأيت أمي تجلس عند باب البيت وهي تراقب الطريق، لم تميز سيارتنا في البداية ولا ميزتني عن أخي حينما رأتنا، هنا انتبهت أن أمي لم تعد ترى كالسابق، ضعف بصرها حتى أصبحت لا ترى أكثر من بضعة أمتار ليس إلا، لم أعلم بذلك رغم أنها ألمحت لي أكثر من مرة على الهاتف بضعف نظرها.

مشكلة الغربة أنك تجبر نفسك أن تصدق كذب أهلك، تصدق أمك حينما تخبرك أنها بخير، وتصدق أختك حينما تقول إنها لا تحتاج شيئا أبداً، وتصدق أخاك حينما يخبرك أنه يبلي بلاءً حسناً في الحياة، والحقيقة أنهم كلهم يكذبون وأنت تتظاهر بالتصديق حتى لا تعود من هناك.

احتضنت أمي وأنا أقبل رأسها في مودة، عانقت زوجتي في حميمية وحملت الصغير في حضنها رغم ثقله عليها، كانوا قد جهزوا لي غرفة نظيفة بالمنزل، غيرنا ثيابنا ووجدت أمي تدعوني للطعام، كم أشتاق له!، رأيت ابني ينظر للطعام في تعجب، أين الأرز الأبيض مع السمك؟، أين حساء المكرونة الأسيوي الشهير؟، هذا طعام غريب بالنسبة له، رأى الكثيرمن الأطباق الخضراء، ضحكت وأنا أشير للطبق قائلاً:

— ملوخية.

ردد خلفي مبهوتاً.

— ملوكية

كان حرف الخاء ثقيلاً عليه حيث لا يرد في إنجليزيته، أثار نطقه للكلمة ضحك أخي وأمي وأخواتي البنات، لا بأس، المسألة تحتاج إلى الوقت.

طافت أيدينا خلال صحاف الطعام سبع مرات، تخللها حديث شيق، كانوا ينظرون لزوجتي الجميلة في تعجب، تجيب بكلمات عربية من حين لآخر وتستوضحني ماذا يقولون أغلب الأحيان؟، هذه الجلسة أحن لها منذ أربع سنوات ولو كنت ملكاً لكنت أبيع مملكتي لأجل أن تدوم هذه الجلسة إلى الأبد.

رفع الطعام وجاءت صينية الشاي التقليدية تحمل أقداح الشاي الثقيل، شعرت بالسعادة وأنا أرى براد الشاي الأزرق ما زال كما هو، كنت سأتضايق لو فقدوه مع ما فقد عبر السنين، هذا البراد يستحق أن يوضع في المتحف أو يتبرك به لدى الأقدمين.

كان أبناء أخواتي قد أتوا، عددهم عشرة ما بين طفل يحبو وآخر يخط شاربه الأخضر تحت أنفه في استحياء، كانت فرحتهم برؤية ابني فوق الوصف، فرحة حقيقية غير مصطنعة، كنت في مثل عمرهم أنظر لأبناء عمي الذي يسكن في (حلوان) على أنهم مثل الأجانب، أقلدهم في كلامهم ومشيتهم وكأنهم أساطير، فما بالهم بطفل أسيوي الملامح وإفرنجي اللغة؟!

طلبوا منه أن ياتي معهم للخارج للعب، نظرت لي زوجتي في قلق، سألتها أن تهدأ؛ فالقرية آمن من حضن أم لطفلها الرضيع، سارت معه تراقبه حتى باب الدار قبل أن تطمئن حينما رأتهم يلعبون قريباً منا.

صرنا نزجي الوقت بحكايات بدت غريبة عليّ للمرة الأولى، ذكروا الكثير من أحوال الناس، مَن مات ومَن وُلد، مَن تزوج ومَن طلق، مَن سافر ومَن عاد، شعرت بأني من كوكب آخر، ما كل هذه الأسماء؟، هل أعرفهم، تظاهرت بالاندماج، حدثتهم عن بلاد زوجتي ومدينة كوالالمبور الحديثة، حدثتهم

حكايات مستهلكة عن الكويت وأسواقها، لا جديد لديّ لأضيفه هذه المرة، ولا أستطيع ترديد ما رويته من أسفار أخرى.

بعد قليل انصرفوا إلى الحديث مع بعضهم البعض رغم أني ظللت وسطهم، هناك بينهم ما يجمعهم أكثر مني، حينما كنت في (مصر) كانت علاقتي بأختي التي تليني قوية جداً لدرجة أني صرت مكمن سرها، الآن لا أشعر نحوها بشيء، ولا أعلم من حالها الكثير، بل صار بينها وبين أخي التي كانت لا تحبه أسرار وحكايات.

حتى أبناء أخواتي لم أعد أعرف أسماءهم، فقط أحفظ الوجوه ومَن ينحدر من نسل مَن؟، ولكني لا أعرف عنهم أيّ شيء، كنت ما زلت أذكر خالي الذي لم تمنعه مشغولياته أن يتواصل ويزورنا كل أسبوع ويتابع تقدمي في دراستي، أنا لدي أبناء إخوة لا أعرف مراحلهم الدراسية أو ما الذي يحبونه؟، وما الذي يكرهونه؟

منذ فترة قليلة كنت أتلقى محاضرة عن اتخاذ القرار وكان محور المحاضرة أنه كلما زادت المدة الزمنية التي سيؤثر فيها القرار كان حتما أن يأخذ القرار وقتاً طويلاً للتفكر والتدبر، فمثلا لو كنت ستتزوج وتعلم أنك ستقضي ثلاثين عاماً في ذلك الزواج فيجب ألا تتخذ قرار الزواج في يوم أو يومين فقط، لو كنت حضرت هذه المحاضرة قبل سفري وغربتي ربما لفكرت شهراً قبل اتخاذ هذا القرار، وربما لم أسافر من الأساس.

ترى هل سيفتقدني أحدٌ لو متّ بغربتي؟، لا أظن، وحدها والدتي ستبكي لسنوات، أخواتي البنات سيبكين يوماً أو يومين، أخي الرجل سيدخن التبغ في عزائي وسيتحدث عن ظاهرة التلوث مع القادمين للعزاء، حتى زوجتي ستأخذ ابني وتتزوج رجلاً ماليزيا ينسبه له وينسى أنه كان له أب من بلد آخر.

حتى جثماني لن يطالب أحد به ويكلف نفسه عناء نقله من بلد إلى آخر

وسيظل غريباً في بلد غريبة، شعرت بأني بحاجة للبكاء عند توارد هذا الخاطر إلي عقلي خصوصاً وقد تذكرت زميلاً لنا مكث عدة أيام ينتظر مَن يشحنه إلى بلده، وحتى لا تتعفن جثته انتزعوا منها أحشاءها وتركوا بطنه مفتوحاً، يا لها من نهاية لرجل كان يحيا بين ظهرانينا يضحك ويلعب ويتحدث!

لم أستطع الجلوس بينهم فأنا أريد البكاء، خرجت مسرعاً إلى ساحة الدار، لم أرَ ابني مع الصغار، سألتهم عنه فقالوا: ذهب تجاه الحقول.

ذهبت إلى هناك مسرعاً، رأيته قد انغمس حتى قدميه في الوحل وهو يصنع بيوتاً من الطين، انقلب حزني سروراً، وتحولت دموعي إلى دموع فرح، شمرت عن ساقيّ ونزلت معه ألعب ونصنع مدينة كاملة من الطين.

بعد ساعة حينما عدت به إلى المنزل، اندهش الجميع من الوحل الذي علانا، وأذهلتهم إبتسامتي، صاح ابني بالإنجليزية:

— أبي، نحن في البيت.

عانقته في حب قائلاً بالعربية وقد أدركت أن المعنى واحد:

— بل نحن في الوطن.

تمت

قدح الشاي

سكب شلال الماء الساخن في بطء مثير، وهو يراقبه يعانق حبيبات السكر داخل القدح الزجاجي في حميمية، أحس بشعور بالسعادة يملؤه، ولمَ لا وهو أول قدح للشاي يحتسيه منذ الصباح؟، التقط ملعقة فضية صغيرة بين أنامله وهو يقلب بها الشاي؛ ليفني ما بقي من حبيبات السكر، وكأنه يحررها من مرحلة الشرنقة التي هي لا شيء إلى مرحلة الفراشة التي هي كل شيء، ولوهلة شرد في سحب البخار المتصاعد من الشاي مع أفكار فلسفية تافهة لا قيمة لها.

تساءل في قرارة نفسه عن الشعور الذي لدى حبيبات السكر لو كانت تشعر تحت الماء المغلي، ماذا لو كانت حبيبات السكر تشعر ولكن لا تقدر على الكلام؟، هل يشبه الالتحام بين الشاي والسكر بحميمية العلاقة بين الذكر والأنثى؟

أخذ قدح الشاي إلى الشرفة ووضعه على حافة إفريزها وهو يشاهد غروب الشمس من بعيدٍ وتساءل: كيف كان سيكون شكل العالم لو لم يكن هناك شاي؟، هل كان سيحب القهوة، أم أنه سيلجأ إليها؛ لأنه لا بديل لها؟،

في رأيه القهوة تختلف عن الشاي، فهما ليسا مختلفين فقط في الطعم واللون والرائحة، ولكنه يعتبر القهوة مشروب مَن يريد التركيز، أما الشاي فمشروب مَن يريد الشرود، مع سحائب الدخان والبخار المتصاعدة من أقداح الشاي يمكنك الشرود في أي شيء، وهو ليس شروداً بتفكير، فلن تنهي حل معادلات رياضية أو تحل لغزاً بوليسيا أثناء ذلك، بل هو شرود يأخذك من كل عالمك وواقعك

وآمالك وأحلامك وآلامك، ليلقي بك في قعر بئر لا قرار لها إلى فضاء سرمدي لا نهاية له بلا أفكار أو أحلام، وكأن اسمك وشخصك يذوبان في كيان واحد اسمه لا شيء ولا أحد.

ارتشف أول رشفة من قدح الشاي، آه لو قدر له أن يصفها، تشبه أول قبلة لفتاة، أول راتب نتحصل عليه بعد عمل شاق، أول مرة سافر بها، هي الشعور باللذة، منتهى اللذة، ابتسم في قرارة نفسه، أدرك أن كل الأشياء لها بعد فلسفي حتى قدح الشاي، ارتشف الرشفة الثانية، حاول أن يفلسف طعمها، فلم يجد، ربما المرة الثانية من الشيء ليست بذات طعم المرة الأولى، هي فقط للمقارنة، تقارن زواجك الثاني بزواجك الأول، ابنك الثاني بابنك الأول، بيتك الثاني ببيتك الأول، هي فرصة للتأكد كذلك، تتأكد من أنك أخطات أو أصبت، نظر إلى القدح وهو يوالي الرشفات، يحاول أن يستحلب اللذة بكل أشكالها، أغلق عينيه بقوة مع بعض الرشفات ليكتشف لذة أخرى، هي لذة الكفيف في التذوق، للشراب طعم أحلى وأنت تشربه مع عينين لا تريان، ربما لأنك تعزل حواس النظر ليحتل محلها حواس التذوق، أنف يشم ولسان يتذوق، قاربت الرشفات على الانتهاء، تبقت رشفة واحدة أخيرة، أحس بها مثل بوابة الجنة، هي آخر ما تراه، وما لا تريد التفريط به أبداً، هو كغيره يدرك أن الرشفة الأخيرة في أي كوب تعادل الكوب كله، لذا كان يحرص حين يتقاسم الكوب مع أي شخص على أن يترك له النصف الأول ليستمتع هو بالنصف الثاني والأخير، بطعمه الأحلى والأشهى، وبالذات ليتمتع بمذاق الرشفة الأخيرة ولا شيء يضاهيها، هي تشبه لفافة التبغ الأخيرة التي يدخنها مَن هو مقدم على الموت، تشبه الحب الأخير في حياتك الذي ينسيك عذابات ما قبله، تشبه المفتاح الأخير لديك الذي يفتح الباب بعدما تفشل بقية المفاتيح.

أنهى الرشفة الأخيرة كأنه يلعق القدح لعقاً، قبل أن يضحك ضحكة نصف

مبتورة لخيالاته، نظر إلى الشمس الراحلة وهو يتساءل: هل الكون معقد أم بسيط؟، أكوب شاي يحتاج كل هذه الفلسفة والتأملات؟، ماذا عن غروب الشمس هل يشبه الوفاة أم الميلاد الجديد أم استراحة محاربٍ تعب؟، ماذا عن المد والجزر؟، ماذا عن الخسوف والكسوف؟، ماذا عن حركات الطير في السماء؟، ماذا عن موسم التزاوج لدى حيوان الطلطميس إن كان هناك حيوان بهذا الاسم؟

أحس برغبة في كتابة خواطره، أمسك بأجندة قديمة يحتفظ بها لتدوين مواعيده وأعماله العاجلة، جلس يكتب كلمات غير مترابطة، الموت، موسم الشتاء، هجرة السلمون، عم إدريس الساعي، الباذنجان المقلي، رائحة التراب بعد رشّ الماء عليه، كلمات غير مترابطة، أخذ يفكر كيف يمكن أن يوجد فلسفة داخلية عميقة عن كل كلمة من هذه الكلمات، اعتصر مخه بحثاً، عجز عن إيجاد العلاقة أو الفلسفة، أغلق أجندته وهو يبتسم قائلاً لنفسه:

— الأمر يحتاج إلى قدحٍ، قدح شاي.

تمت

المتعة المسروقة

رفعت رأسها لتستطلع مَن ذلك الشخص الذي يحتمي بظلال الشجر الساقطة على الأرض لتخلط بينه وبين جذوعها، كان يتسلل في صمت وسرعة متجها نحو بيتها الذي قبع ملازماً لثلاثة بيوت صغيرة فقط وسط الحقول التي افترشت الأرض.

تعرفت عليه على الفور، حتى من قبل أن تستبين ملامحه، هي هيئته من بعيد وطريقته في المشي التي حفظتها، رقصت الفرحة بين جوانبها ولكنها كتمت صيحة السعادة خشية أن تكشف ستره، جاست عيناها خلال البيوت لترى هل هناك مَن ينظرهما؟، رأت نافذة تهتز ربما بفعل يد أغلقتها للتوّ، تتمنى لو أنها الريح ولكنَّ سنوات عمرها الخمس والستين أخبرتها أن عيون الجيران تراقب وسريعاً أفواههم ستتكلم.

تسلل الرجل إلى حظيرة الحيوانات المفضية إلى الدار مثل اللصوص الذين انتهبوها آخر مرة، تركت هي عملها بالأرض التي أحنت ظهرها وسرقت منها عمرها وجسدها الغض وسارت وهي تتوكأ على عجزها، وتحس بثقل سنوات عمرها الخمس والستين على ظهرها كالقتب حتى دلفت إلى الدار، أسرعت نحو باب الحظيرة تفتحه، التقت عيناها به، ارتجف لحظة كضوء المشعل حينما يداعبه النسيم قبل أن يبتسم ابتسامة متعبة حزينة ويلقي بنفسه عليها ليذوب وسط أحضانها، لثمت وجهه وكتفيه بقبلات كثيرة وهي تغرقه بدموعها قائلة:

— (حسن)، يا بني لقد عدت أخيراً.

رد عليها في حزن وسعادة لا ندري كيف اجتمعا في صوت واحد؟

— ليس طويلاً يا أمي، فهم يبحثون عني في كل مكان.

بالغت في احتضانه كأنما تستجلب دفء المشاعر لقلبها وهي تتذكر آخر ما رأته منه، والده كان يصر على ألا يذهب إلى التجنيد لتسليم نفسه للخدمة العسكرية بدعوى أن الأرض تحتاج إليه، وهو يتعهد بتزويجه وحمايته، يومها قال له ما هي إلا عشر سنوات ويسقط عنك التكليف، لم يدرِ يومها أن والده نفسه الذي ضحى بحياته من أجله سينقلب عليه إثر مشاجرة بسيطة ويبلغ عنه السلطات.

تذكر يوم اقتادوه من الدار وسط شماتة والده وولولوة زوجته ونحيبها، تذكرت يوم قاطعت زوجها حتى وفاته بعدها بشهور قليلة دون أن تبادله كلمة أو نظرة واحدة وهي تحمله اللوم على كل ما حاق بوحيدها.

تعرف أن الشرطة الآن ربما تكون في طريقها إليهم، والنافذة المهتزة لم تكن تشي بالخير، فالعلاقات مع الجيران لم تكن حسنة في معظم الأحوال، انتزعته من أحضانها وهي تمسك برأسه بين كفيها قائلة:

— (شيماء) في غرفتها، اذهب إليها، أسرع.

غادرها الفتى بين لهفة وخجل وهي تتنهد، مسكين لم يذق عسيلة زوجته سوى أيام قليلة قبل أن ينتزعوه من فراشه وأحضانها، عشرة شهور مرت عليه وهو في السجن الحربي، وعندما أخذوه بعدها لتأدية خدمته لم يستطع الاحتمال فهرب.

الشرطة توافيها كل فترة لتقوم بتفتيش الدار، الضابط متعاطف معها لكنها وظيفته، بين حين وآخر تأتيها أخباره، عمل لفترة في تهريب الأسماك بأسوان ثم في زراعة الخضراوات بقرية قرب الجيزة، حياته ليست على ما يرام.

سمعت صوت بكاء زوجته صادراً من الأعلى، فهمست لنفسها:

— الصغيرة البلهاء، لا تشعر الوقت فتهدره في البكاء.

جاءتها ضحكة خجول مع صوت باب يغلق فابتسمت وهي تشعل النار لتسخن له الماء ليغتسل، نظرت في الدار، لم يكن هناك سوى الخبز والجبن، وهو يا لهولي، ربما لم يذق الدسم منذ شهور.

سارت إلى الحظيرة لتنتقي أكبر دجاجتين لتجز رقبتهما بالسكين وتنزع عنهما ريشهما واضعة كلتيهما في إناء واسع، اقتطفت بعض الخضار من حقل مجاور فلم يكن بوسعها الذهاب إلى السوق واعدة نفسها بأن تسدّد ثمنه إلى صاحب الحقل متى رأته.

أحست بالقلق يعتريها دونما سببٍ، هي حاسة تكونت لديها مؤخراً فصارت تشعر متى أحاط بالبيت خطر من أي نوع، فخرجت إلى الطريق المؤدي إلى بيتها، من بعيد لمحت الضابط مع اثنين من الخفر يأتون هرولة، إذن النافذة المهتزة لم تكن بفعل الهواء.

زفرت وصوتها يعلو ليسمع الجميع:

— ضابط، أهلاً وسهلاً، شرفتنا.

اقترب منها الضابط الذي شعر أنها باغتته قبل أن يفاجئها:

— أين ابنك يا حاجة (جليلة)؟

— لا أعرف يا حضرة الضابط، لن أكون أعلم من الحكومة بمكان ابني، لم أره منذ أن أخذتموه إلى السجن الحربي وبعدها إلى الجيش.

قال لها برفق ناصحاً:

— من مصلحتك ومصلحته أن تقولي لنا: أين هو؟

قالت في شرودٍ:

— يا سعادة الباشا، لقد رأيت ابني وهو في الثانية من عمره عندما يخاف يهرع ليختبئ بين طيات صدري مستغشياً بثيابي فلا أكاد أعرف أين هو وهو بين طيات صدري وأقرب ما يكون إليّ؟، فهل أدري اليوم وهو رجل كبير ضخم هارب من وجه عباد الله إلى بلاد الله؟، هيهات يا سعادة الباشا.

— نحن مضطرون إذن إلى تفتيش الدار.

— حقك وحق الحكومة، لكن زوجته تغتسل في قلب الدار، انتظروا حتى تفرغ وبعدها الدار داركم، البيت له حرمات وأنتم تعرفون هذا بالطبع.

انتظر الضابط مع رجاله بالخارج بضع دقائق وهي تجاذبه الحديث عن أهله وبلده وأحواله والرجل يجيبها باقتضاب ولكن بلطفٍ حتى نظر إلى ساعته بغتةً وهو يقول:

— أظن أن هذا يكفي.

أشارت له وهي تفتح باب الدار في هدوء صائحة:

— تفضل يا حضرة الضابط، قم بواجبك.

أسرع مع رجاله يفتشون البيت قطعة قطعة والزوجة الشابة تقف في وسط الدار شاحبة باكية وقد صكت وجها الذي علاه الزينة، والأم تنظر إليها لتستنطق من عينيها حقيقة ما حدث بينهما قبل أن تسرع لتحمّر الدجاجتين في الزيت في عجالة ثم تصرّهما في منديل كبير مع بعض الفاكهة والخضراوات وهي تتفحص الحقول في قلق.

لاحظت ارتعاشات الذرة وأعوادها، إنه يبتعد ثم يتوقف ثم يغير مساره ليقترب، تشعر بقلقه وتردّده بين الهروب والبقاء، الطعام في صرّتها والماء المجهز لاغتساله على النار يغلي، والضابط قد انتهى دونما جدوى، فتمتمت في صوتٍ خافتٍ:

— عُدْ يا بني، لقد زال الخطر.

غادر الضابط الدار وهو يعتذر لها محدجاً نوافذ الجيران بنظرة غاضبة قبل أن تغلق هي الباب في قوة وتهرع عبر الحظيرة إلى حقول الذرة باحثة عنه ولكن بلا فائدةٍ، لقد ذهب.

عادت إلى زوجة ابنها التي استكانت إلى أحد أركان الدار، وقد ضمت ساقيها إلى صدرها وهي تبكي بحرقةٍ، سألتها في عفوية الأمهات التلقيدية:

— هل حدث؟ أم أعجلتم؟

هزت الفتاة رأسها بالإيجاب على الأولى، والمرأة العجوز تنظر إلى الدجاج والماء، لم يأكل ولم يغتسل.

تمت

الموت قبل العاشرة

شرحوا لي حالتها في الطريق بكلمات قليلة مبهمة، وعندما وصلت اتضح لي الموقف كله في لحظة واحدة، كانت سيدة في أواخر الخمسينات من عمرها، ممتلئة الجسد، نحيلة الوجه، وإن بدا واضحاً أنّ تهدّل الجلد تحت عينهها من أثر الحزن، كانت قد جلست بلا حراكٍ على أحد المقاعد في غرفة نومها تحدّق في الساعة في ذهول، أو على الأصح نظرة باردة خاوية من أي مشاعر.

أشارت الساعة إلى العاشرة إلا دقيقة، سألت ابنها هامساً:

— متى مات بالضبط؟

— في تمام العاشرة منذ أسبوع.

— هل بكت أو أنتحبت منذ ذلك الوقت؟

— لا، لقد بدت هادئة متماسكة طوال الأسبوع، ثم اليوم فعلت ما فعلت.

دقت الساعة العاشرة فقامت السيدة في هدوء باتجاه الساعة لتنزعها من مكانها وهي تعيد العقارب إلى الوراء نحو الساعة العاشرة إلا خمس دقائق تقريباً، ثم تعود لتجلس جلستها الأولى وابنها يقول:

— تفعل هذا كل خمس دقائق حتى كدنا نحن منها نحن الآخرون، لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، بل تعيد الساعة إلى الوراء فقط.

— أمات بين ذراعيها؟

— نعَم، في فراشه، ظل يحتضر مدة ما ثم مات، لم يكن هناك من أحد سواها إلى جواره.

— استغرق موته خمس دقائق؟

— كيف عرفت؟

— مما تفعله هي الآن، إنها تعيد الزمن إلى بداية لحظة احتضاره، وعندما يصل إلى لحظة موته تعيده مره أخرى، هي تعتقد بأنها بإعادتها الزمن إلى الوراء فإنها ستعيده إلى الحياة، ولكن هيهات.

— أهو رفض للموت؟

— بل حب في إحيائه، لقد كان لها فيما يبدو لي كل شيء ولم تحتمل فقده.

— ولكننا حاولنا إيقافها.

— وماذا فعلت؟

— رفضت بشدة وتملصت من بين أيدينا لتعيد عقارب الساعة إلى الوراء مجدداً، مرة تلو أخرى، ولكننا لا نستطيع تحمل هذا، إنها تذبل وتزوى أمام أعيننا، فلم يكن أمامنا سوى استدعائك.

— حتى أنا لا يمكنني علاجها.

— ماذا تقول؟ أليس لديك أي حقن مهدئة أو أدوية أعصاب تساعدها على تخطي حالتها؟، ألا يمكننا نقلها لمستشفى لو تطلب الأمر؟

— الحل الوحيد الذي يمكننا من شفائها أن يعود إلى الحياة مرة أخرى وهذا ما لا أستطيع فعله.

— أنتركها هكذا حتى تموت جوعاً وعطشاً وتعباً؟

— لا، بل سنقاومها في المرة التالية.

— لن تستسلم لنا.

— لا نريدها أن تستسلم، فلو منعناها لحدث لها صدمة عصبية قد تفقدها الإدراك بما حولها، وتدخل في حالة غيبوبة نفسية.

— أتظنها تدرك ما حولها الآن؟

— بالطبع هي تشعر بوجودنا ولكنها لا تعطي بالاً لسماعنا.

— وماذا ستفعل أنت؟

— الساعة قاربت العاشرة، حينما تهم بالوقوف حاول إيقافها قدر الإمكان.

— وأنت؟

— مجرد محاولة سأخبرك عنها إذا نجحت.

قامت السيدة في خطوات واهنة نحو الساعة فوقف ابنها أمامها، بدا لها أنها لم تره وهي تصطدم به وتحاول إزاحته من طريقها، ولكنه ناضل لكي يمسك بها، بدأت تئن وكأنما هناك مَن يؤلمها قبل أن تصل إلى الساعة لتعيدها إلى العاشرة إلا خمساً وتعود لتجلس مره أخرى.

سأل ابنها الطبيب:

— ماذا فعلت؟

— نزعت بطاريات الساعة.

— وماذا بعد؟

— سيمر وقت طويلٌ قبل أن تنتبه إلى أن الساعة لم تتحرك عن العاشرة إلا خمساً، ساعتها سيبدأ عقلها الواعي في التغلب على عقلها الباطن، إنه

المثير المحفز بأن هناك شيئاً ما خطأ في الأمر، وساعتها ستعود إلى طبيعتها.

— أتظن؟

— هذا ما أتمناه، فمهما بلغنا من العلم هناك أماكن في العقل لم نكتشفها بعد.

طال مكوثهما بجوار السيدة ليلة كاملة قبل أن تنهض لتتأمل الساعة في حيرة ثم تنهمر دموع الحزن من عينيها لأول مرة.

تمت

نبذة عن المؤلف

— حسام الـ طيب روائي وقاص مصري

— من مواليد محافظة سوهاج عام ١٩٨٢م

— يعمل مديرًا فندقيًا وخبيرًا بالتنمية البشرية والإدارة.

— حاصل على بكالريوس سياحة وفنادق من جامعة المنيا وعلى ليسانس الحقوق من جامعة الاسكندرية.

— صدر له روايات (شيبتني بغداد) (ابن ناهد) (ليلة الكُتاب الموتى) كما شارك في العديد من الكتب الجماعية.

المحتويات

بيت من خمس غرف.....٣
الشارع لم يعد لنا (المشهد الأول).....٢١
(المشهد الثاني).....٢٥
(المشهد الثالث).....٢٨
حياتي بعد فتح الله عبود.....٣١
المصباح السحري.....٤٧
فينوس.....٥٣
زوجة أبي.....٥٥
يد في أغلال الخطيئة.....٦١
أبناء الأرض.....٦٥
حدث يوماً ما.....٧٩
المغترب.....٨٧
قدح الشاي.....٩٥

المتعة المسروقة.....٩٩
الموت قبل العاشرة.....١٠٥
نبذة عن المؤلف.....١٠٩
المحتويات.....١١٠